اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[١]

أحلام شهرزاد

طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

سلسلة اقرأ
صدر العدد الأول
سنة ١٩٤٣

تصميم الغلاف:
دعاء عبد الواحد
اللوحات الداخلية
بيكار

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

حسين، طه.
أحلام شهرزاد / طه حسين. – القاهرة:
دار المعارف، 2016.
؟؟؟؟ ص، 16.5 سم
تدمك
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى:
رقم الإيداع:
رقم أمر التشغيل: 1/2016/14
رقم الكونجرس:

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة
كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

تمت الطباعة بدعم من
مؤسسة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
للأعمال الخيرية والإنسانية

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها.

طه حسين

دار المعارف

أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

طه حسين

أحلام شهرزاد

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

مقدمة

عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات، فى جميع الأمم والشعوب، وفى الشعوب العربية بوجه خاص، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.

وبهذا الفعل القصير الخطير بدىء تنزيل القرآن؛ فكان أول ما خوطب به النبى ﷺ وخوطب به الناس من بعده، هو هذا الأمر الكريم بالقراءة. ونحسب أن هذا هو الذى دعا صديقنا الأستاذ أحمد أمين إلى اختيار هذا العنوان لهذه السلسلة فآثرناه كلنا متيمنين به، مجمعين عليه.

وكان صاحب المنطق – كما يسميه الجاحظ – يقول إن الإنسان حيوان ناطق، وكان النطق عنده فيما يحدثنا الفلاسفة أشمل من إدارة اللسان فى الفم باللفظ الذى يبلغ السمع، فينقل إليك ما فى نفس محدثك. كان النطق عند أرسطاطليس يدل على التفكير والتعبير جميعًا. ولكن أرسطاطليس لم يعرّف الإنسان بأنه حيوان ناطق فحسب، وإنما وصفه بأنه مدنى بالطبع كما ترجم القدماء، أو أنه اجتماعى بالطبع كما يترجم المحدَثون.

وما نعرف شيئًا يحقق للإنسان تفكيره وتعبيره ومدنيته، كالقراءة. فهي تصور التفكير على أنه أصل لكل ما يقرأ، وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ. فالكاتب يفكر قبل أن يكتب، وأثناء كتابته؛ والقارئ يفكر فيما يقرأ وأثناء قراءته وبعد أن يقرأ.

وكذلك يمضى الإنسان فى تحقيق هاتين الخصلتين اللتين تميزانه وتضعانه حيث أراد الله له أن يكون من التفوق والرقى، وهما العقل والمدنية. فإذا أمر الله الإنسان بأن يقرأ، فإنما يأمره بأن يطمح إلى الكمال، ويسعى إليه. وإذا كانت القراءة أخص مميزات الحضارة، تكثر وتنتشر إذا اتسعت الحضارة وارتقت، وتقل وتتضاءل إذا ضاقت الحضارة وانحطت، فقد يكون من أيسر التعبير وأوجزه فى يوم من الأيام أن تختصر الطريق، وأن يعرف الإنسان بأنه حيوان قارئ دون أن يكون فى هذا التعريف تجاوز لما قصد إليه أرسطاطليس.

وكانت القراءة فى أول أمر الإنسان مقصورة على قلة ضئيلة من الناس فى كل شعب من الشعوب المتحضرة. وكان

رقى الحضارة واتساعها يدعوان إلى شيوع القراءة وانتشارها حتى كان هذا العصر الحديث وحتى كانت الديمقراطية التى أخذت تلغى الفروق والامتيازات وتقرب ما بين الطبقات.

وإذًا القــراءة تصبح حقًّا شــائعًا لكل إنســان بــل واجبًا محتومًا على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة. وإذًا الدول تشعر بهذا الحق وتفرض على نفسها أو تفرض عليها الشعوب تعليم القراءة لكل فرد من الناس دون أن تتقاضى على ذلك منه أجرًا. ونحن نعلم أن الدول إنما تعلم أبناء الشعب هذه القراءة الآلية وقليلا جدًّا مما يهيئهم للقراءة التى ترقى العقل، وتنقى الطبــع، وتصفى الذوق؛ ولكن القراءة على كل حال هى الطريق الطبيعية الميســرة لرقــى العقل، والطبــع، والخلق، والذوق، وحيثما انتشــرت القــراءة طلب النــاس ما يقــرأون وتنافس المتازون منهم فى أن يقدموا إليهم ما يقرأون، ونشــأ عن هذا كلــه ما نعرفه من قــوة الحياة العقلية، وخصبها، وما ينشــأ عنها من نتائج لا تحصى فــى حياة الناس، وقد أخذت الدول فى الشرق تعلم الناس القراءة، وأخذ الناس يطلبون ما يقرأون، وأخذ الكتاب يتنافسون فى أن يقدموا إليهم ما يقرأون.

وليس الإنســان ناطقًا بطبعه، ولا اجتماعيًّا بطبعه فحســب، ولكن الإنســان كســل بطبعه أيضًا؛ فهو مشوق بطبعه إلى الرقى،

ولكنه مدفوع بطبعه إلى حب اليسر، وإيثار السهولة، وتجنب الجهد الشاق ما وجد إلى ذلك سبيلا، وهو محب للقراءة ما فى ذلك شك، ولكنه يريد أن تيسر له هذه القراءة، ووجوه التيسير كثيرة مختلفة أخطرها وأعظمها ضررًا هو الذى يشيع، وينتشر مع الأسف الشديد. فالكلام السهل اليسير المبتذل القريب الذى ينتشر فى الصحف السيارة الذى يكفى الإنسان أن يمد يده ليتناولها وفى الكتب الرخيصة التى يحصلها القارئ دون أن يشق على ماله ويقرأها دون أن يشق على عقله.

هذا الكلام هو الذى يتهافت عليه القراء بحكم هذه الخصلة الطبيعية فى تكوينه، وهى خصلة الكسل، وإيثار الهين من الأمور. فلابد إذن من أن تقاوم هذه الخصلة ما استطاع المثقفون مقاومتها، ولابد من أن تقرب القراءة الممتعة الخصبة إلى الناس حتى يستطيعوا أن يقرأوا فى غير مشقة على عقولهم ولا على أموالهم.

وليس كل ما ينتجه العقل الإنسانى ميسر القراءة للناس، فهناك الممتازون فى الثقافة ولكن هناك أصحاب الثقافة المتوسطة وأصحاب الثقافة المتواضعة. وليس من اليسير أن يسيغ أولئك وهؤلاء ما يكتبه الممتازون من الفلاسفة والعلماء والأدباء. وليس من الحق ولا من العدل أن يحرم أولئك وهؤلاء خير ما يثمره العقل

الإنسانى من الإنتاج. فلابد إذن من أن يأخذوا منه بحظ ما، لابد من أن يرتفعوا إليه شيئاً ومن أن يهبط هو إليهم شيئًا، حتى يكون هذا اللقاء الخصب الذى يعم به نفع العلم والفلسفة والأدب.

وكل هذه الملاحظات دعت إلى التفكير فى إنشاء هذه السلسلة من الكتب القصيرة اليسيرة الرخيصة التى يسهل شراؤها وتهون قراءتها ويقرب الانتفاع بها والاستمتاع بما فيها ولا يشق ثمنها على أوساط الناس ولا على فقرائهم.

فهذه السلسلة جهد من الجهود التى تبذل فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات وهى نتيجة طبيعية لهذا الطور الذى نحن فيه من أطوار حياتنا. وفى الأرض أمم سبقتنا فى هذا العصر الحديث إلى الرقى وقطعت فيه أشواطاً لم نقطعها بعد وهى مع ذلك بل من أجل ذلك تنشىء أمثال هذه السلسلة وتبذل فى إنشائها وإذاعتها وتيسيرها جهودًا عظيمة موفقة. فكيف بنا وحاجتنا إلى هذا التيسير أشد من حاجتها، وضرورات الحياة الحديثة تفرض علينا أن نقطع أبعد الآماد إلى الرقى

فى أقصر الأوقات لنستدرك ما فاتنا ولنبلغ حقنا من المساواة بيننا وبين الشعوب المتفوقة.

والنية فى هذه السلسلة أن تكون على يسرها وقربها متنوعة أشد التنوع وأنفعه. فهى تنشر المؤلفات الحديثة كما تنشر الآثار القديمة، وهى تنشر الآثار التى تؤلف كما تنشر الآثار التى تترجم، وهى تنشر من هذا كله فى كل فرع ممكن من فروع الإنتاج العقلى فى الأدب الإنشائى وفى الأدب الوصفى، فى العلم الخالص وفى العلم التطبيقى، فى السياسة، فى التاريخ، فى العمران والاجتماع، فى كل لون من ألوان هذا النشاط الذى يجعل العقل الإنسانى منتجًا فى جميع فنون المعرفة. ذلك لأن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها لم يفكروا إلا فى شىء واحد هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية وأن ينتفعوا وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

وكل ما نرجوه هو أن نوفق إلى تحقيق بعض هذه الغاية.

١٥ يناير سنة ١٩٤٣م

أحلام شهرزاد

١

فلما كانت الليلة التاسعة بعد الألف أفاق شهريار من نومه مذعورًا، وجعل يتسمع لعله يجد ذلك الصوت الذى أيقظه، فلم يسمع شيئًا. وجعل يمد يده عن يمين ويمد يده عن شمال ليتبين أينكر من مضجعه شيئًا، فلم ينكر شيئًا. ثم استوى جالسًا فى سريره وجعل يدير رأسه عن يمين وعن شمال ويمد بصره فى الظلمة المتكاثفة من حوله كما يمد سمعه فى الصمت المنعقد فى غرفته، فلا يقع بصره على شىء، ولا ينتهى سمعه إلى شىء، ولا تصل نفسه إلى شىء. فلم يشك فى أن طائفًا قد ألم بـه أثناء النوم فرده إلى اليقظة ردًّا لم يخل من بعض العنف. وما أكثر ما تهيم فى ظلمات الليل هذه الأرواح المشردة التى تنطق فى لغاتها الخفية بألفاظ تصل إلى نفوس الرقود أحيانًا كما تصل إلى نفوس الأيقاظ أحيانًا أخرى، فيفهمون عنها مرة ويخطئون الفهم مرات، ويكون لهذه الألفاظ الغريبة المبهمة

فى حياة الناس آثار غريبة مختلطة منها الخير ومنها الشر. ومهما يكن من شـيء فقد عاد شـهريار إلى نفسـه وارتسمت على ثغره ابتسـامة سـريعة لم تلبث أن مرت كأنها البرق، وثارت فى نفسـه عاطفة ضئيلة ولكنها حادة، فيها شيء من حسرة، وفيها شيء من يأس، وفيها شيء من حزن على عهد قد انقضى وليس إلى رجوعه من سبيل. ثم ثاب إلى الملك رشده فتمكن فـى مضجعه وأغمض عينيه وضم يديه إلى صدره ودعا النوم إلى نفسه دعاء قويًّا. وكأن النوم كان ينتظر أن يبلغه هذا الدعاء، فما أسرع ما مد ذراعيه فطوق بهما عنق الملك الحزين فى كثير من الرأفة والرحمة والحنان، وإذا الملك ينسى نفسه ويمعن فى هذا الرقاد الحلو الهادئ المطمئن.

ولم يدرك الملك أطال هـذا الرقاد أم قصر، ولكنه أفاق مرة أخـرى مذعورًا ومد بصره فى الظلمة المتكاثفة، ومد سمعه فى الصمـت المنعقد، وتحسـس بيديه عن يمـين وشمال، فلما لم ير شيئًا، ولم يسمع شـيئًا، ولم ينكر شيئًا أنكر نفسه كلها، ونهض من مضجعه متثاقلًا، فجعل يمشى فى غرفته على غير هـدى، حتى انتهى إلى نافذة من نوافذ الغرفة ففتحها، وكان

ذلــك إذنًا لضوء القمر فى أن ينســل فى هــذه الغرفة. ولكنه لم ينســل، وإنما اندفع إلى الغرفة اندفاعًا أضاء له كل ما فى الغرفة من فضاء ومن أثاث. هنالك أدار الملك بصره فى الغرفة فلم ينكر من أمرها شــيئًا، ثم أشــرف من النافذة فاستنشق الهواء الطلق ومد بصره فى الفضاء العريض المنبســط أمامه، فلم ير إلا هذه الأشــجار الباسقة الشــاهقة فى السماء، وقد لبســت من ضوء القمر أردية نقية ناصعــة وامتدت غصونها تضطرب فى الهواء اضطرابًــا خفيفًا، كأنها ترغِّب فى النوم هذه الطير التى أوت إليها حين ولى النهار، وكأن هذه الطير قد ســكنت إلى حركاتهــا الخفيفة المنتظمــة فنامت مطمئنة وادعة، لولا أحلام خفيفة خفية كانت تمر بنفوسها الضئيلة الوادعة فتبعث من أفواهها أصواتًا قصيرة حلوة، وتبعث فى أجنحتها خفقات يسيرة لا تكاد تبدأ حتى تنقطع. وقد أطال شــهريار وقوفه أمام هذه النافذة مــادًّا بصره فى هذا الفضاء العريض، ومادًّا سمعه فى هذا الصمت الجاثم عليه، وممتعًا نفســه بهــذا الضوء الرقيق الــذى يترقرق بينهمــا، وبهذه الأصوات الرشــيقة التى تبلغه من حــين إلى حين، حتى إذا

ثاب إليه الهدوء وامتلأ قلبه سكينة وآنست نفسه أمنًا ودعة تراجع متثاقلًا، ولكنه لم يذهب إلى مضجعه، وإنما ذهب إلى مجلس من مجالسه فى الغرفة، فترامى عليه متهالكًا، وقد أزمع أن ينتظر مطلع الصبح يقظان، فقد كره مضجعه وكره النوم وكره هذا الطائف الذى أخذ يزعجه منذ الليلة.

ولكنه لم يكد يطمئن فى مجلسه حتى غاب عن نفسه، أو غابت عنه نفسه. وكأن النوم كان ينتظره خلف هذا المجلس، فلم يكد يستقر فيه حتى مد إليه ذراعيه فطوق بهما عنقه فى رأفة ورحمة وحنان، وإذا هو مغرق فى رقاد عميق لذيذ لا يدرى الملك أطال أم قصر. ولكنه أفاق مذعورًا للمرة الثالثة، فمد بصره ومد سمعه، ثم لم يلبث أن ضرب إحدى يديه بالأخرى، ففتح الباب، وأسرع الحرس وفى أيديهم المصابيح. قال الملك: «هل أنكرتم شيئًا؟». قال قائد الحرس: «لم ننكر شيئًا يا مولاى». قال الملك فى صوت فاتر متكسر: «هذا غريب! إنى لمؤرق منذ الليلة».

ثم نهض ومضى متثاقلًا حتى خرج من غرفته والحرس يتقدمونه ويتبعونه، وهو يسعى هادئًا لا يقول شيئًا ولا

يلتفت إلى شـــيء، حتى بلـــغ ذلك الجناح مـــن القصر حيث كانت غرفات الملكة، فمضى أمامه وعاد حراسه إلى أماكنهم. وانتهى شـــهريار إلى غرفة الملكـــة، فدخل دون أن يلتفت إلى هؤلاء الأحراس الذين أدهشـــهم مقدم الملك في هذه الســـاعة المتأخـــرة من الليـــل، ولكنهم لم يقولوا شـــيئًا، وما كان لهم أن يقولوا شـــيئًا، وأكبر الظن أن شـــيئًا مـــن العجب قد ظهر على وجوههم، وفي النظرات القصيرة الســـريعة التي كانوا يتراشقون بها ويختلسونها إلى الملك اختلاسًا.

وأغلق الملك من ورائه باب الغرفة في رفق شـــديد، وسعى في هدوء أي هدوء إلى سرير الملكة يمشي على أطراف قدميه. فلما بلغـــه نظر إلى الملكة نظرة طويلة؛ فـــإذا هي مغرقة في نوم حلو، واســـتمع إلى تنفســـها فإذا هو منتظم هادئ، وإذا الملكة لم تحس شـــيئًا ولم تشـــعر بمقدم هذا الشـــخص الذي انســـل إلى غرفتها في رفق كما تنســـل الأفعـــى، على غير ما جرت به تقاليد القصر. ثم تراجع الملك شيئًا حتى انتهى إلى مجلس من مجالس الغرفـــة، فأهوى إليه رفيقًا حريصًا على ألا يحدث حسًّـــا ما، وعلى ألا يزعـــج الملكة عن نومها، فلما

اطمأن به مجلســه أطرق كأنما ينتظر شيئًا، ولكن انتظاره لم يكن طويلًا؛ فهذا صوت شــهرزاد يبلغ أذنيــه فيملؤه رعبًا وفرقًا ويكاد يخرجه عن طوره، لولا أنه يذكر شــيئًا فيثوب إلى نفسه فى اللحظة الأخيرة ويطمئن فى مجلسه مادًّا عينيه فــى الفضاء مصغيًا إلى هذا الصوت الذى يســعى إليه من قبل شــهرزاد صافيًا نقيًّــا، كأنه صوت ذلك الغديــر الذى أحب الملك أن يجلس إليه حين تؤذن الشــمس بالغروب فيسمع إلى غنائه العذب وهو يداعب الحصى، وكأنما أسكره هذا العرف الذى تهديه إليه من شــاطئيه جميعًا أنفاس الورد والنرجس والياسمين.

٢

وكان هــذا الصوت الحلو يقول فى نغمات موســيقية نّفاذة إلى القلوب أخاّذة للنفوس لم يعرفها الملك حين كانت شهرزاد تقص عليه أحاديثها مســتيقظة: «بلغنى أيها الملك الســعيد أن طهمــان بن زهمــان ملك الجــن فى حضرمــوت كانت له فتاة حســناء رائعة الحســن بارعة الجمال، لا تثبت القلوب

للحظاتهـا إذا نظرت، ولا تثبت النفوس لصوتها إذا تكلمت. وكانت على حسـنها الرائع وجمالها البارع ذكية القلب نافذة البصيرة، قد قرأت كتب الأولـين وعرفت حكمة المحدثين؛ فلم يكن شـيء يستغلق عليها، ولم يكن حكيم يثبت لحديثها أو يقدر على مناظرتهـا. وكان ملوك الجن فى أطراف الأرض التى يسـكنها الناس وفى أطـراف الأرضين التى ليس للناس بهـا عهد، قد تسـامعوا بجمالها وذكائها ومـا أتيح لها من فطنة وفتنة، وتسارعوا إلى أبيها الملك طهمان يخطبونها إليه ويحكمونـه فيما يخضع لهم من الممالـك والأقاليم: هذا يقدم إليـه أقاليم البحـر، وهذا يقدم إليه أقاليـم البر، وهذا يقدم إليـه أقاليم الجـو إلى قريب من مواقع النجـوم. ولكن طهمان بن زهمـان كان يجيب هؤلاء الملوك جميعًـا بجواب واحد لا يتغير: «ما كان لى أن أقضى فى أمر فاتنة بغير ما تريد! فأمر فاتنة إلى فاتنة، فأيكم أراد أن يتخذها لنفسه زوجًا فليخطبها إلى نفسها. وأيكم ظفر منها بالرضا فله ملك أبيها مهرًا».

ولكن فاتنة كانت غريبة الأطوار، بعيدة الآمال، عظيمة الأطماع، قـد زهدت فى ملوك الجن جميعًا واستيأسـت من

حيـــاة الجن جميعًا، فردت خطابها مخذولين مدحورين، لم تمنح واحدًا منهم ابتســـامة، ولم تهـــد إلى واحد منهم نظرة فيها شيء من الرفق، وإنما كان ردها لهم عنيفًا يملؤه السخط والازدراء، ويصدر عن نفس شديدة الكبرياء، لا تؤمن بأحد ولا تطمئن لأحد ولا تســـتريح إلى أحد، نافرة دائمًا، جامحة دائمًا، ســـاخرة إلا حين كانت تتحدث إلى أبيها، فهو وحده الذى كان يظفر منها بالوجه المشـــرق والثغر الباسم والنفس الراضية، وكان أبوها أول الأمر معجبًا بهذا الكبرياء، فخورًا بهذا الإباء، محبا لهذا الامتناع؛ لأنه كان يرفعه فوق ملوك الجـــن درجـــات، ولأنه كان يمســـك عليه ابنتـــه فى قصره. وكان يؤثـــر ابنته بحب لم يجـــده أب لابنته قط، وكان يؤثر نفســـه بقرب هذه الفتاة الفاتنة. وكان يرى فى امتناعها على الخاطبين فســـحة فى الوقت الذى أتيح له فيه أن ينعم بقرب ابنته، والأوقات عند الجن – أيها الملك السعيد – لا تحسب بالســـاعات والأيام ولا تحســـب بالشـــهور والأعـــوام، وإنما تحســـب بالقرون المتتابعة والأحقـــاب المتلاحقة. فلما مضت آلاف الســـنين على فاتنة وهـــى تمتنع على ملوك الجن وأولى

البــأس منهم فى البر والبحر والجــو، وكانت كلما تتابعت القرون ازدادت حســنًا إلى حســن، وجمالاً إلى جمال، وفتنة إلى فتنــة، أقبل عليها أبوها ذات يوم أو ذات قرن فقال لها: «يــا ابنتى إنــك تعلمين أن أبًا من الآبــاء لم يحبب قط ابنته كمــا أحببتك، كمــا أنى أعلم أن فتاة مــن الفتيات لم تحبب قــط أباها كما أحببتنى، وإنك لتعلمين أنى ســعيد بامتناعك علــى خطابــك من ملوك الجــن. أرى فى ذلــك تعاليًا عليهم وإرضاء لكبريائى، وأرى فى ذلك قبل كل شــىء حبا منك لى وإيثارًا منك لأبيك بالمودة والحب، ولو اســتطعت لمضيت فى تشجيعك على هذا الامتناع وإغرائك بهذا الإباء؛ ذلك أحرى أن يكفل لى السعادة وأن يضمن لى النعيم إلى آخر الدهر، ولكن لكل شىء يا ابنتى غاية يقف عندها وأمدًا ينتهى إليه، وقد بلغت ســعادتى بقربك أقصاها وانتهــت إلى غايتها، وآن لنا أن نفــترق. فقد علمت يــا ابنتى أن أحدنا مــن أجيال الجن إذا أتم من عمره خمســة عشــرألفًا من السنين وجب عليه أن يستعد لفراق الأحياء، وأن ينتظر هذه اللحظة الرهيبة التى يســتحيل فيها إلى قبس من نار يمتزج بهذه الجذوة الهائلة

التى يدور عليها الكون والتى تنضج حياة الأحياء، وقد بلغت يا ابنتى ستة عشر ألفًا من العمر، وأخذت أحس أنى أتحول نارًا شيئًا فشيئًا، وما أحب أن أتركك وحيدة؛ فاختارى لنفسك أحب هؤلاء الملوك إليك أو أقلهم إلى نفسك بغضًا».

قالت فاتنة: «فإنى لا أحب منهم أحدًا، ولا أبغض منهم أحدًا، وإنما أزدريهم جميعًا، وإذًا فلن أختار منهم أحدًا».

قال طمهان بن زهمان: «فإنى لا أكره يا ابنتى أن تمتنعى عليهم وأن تعيشى وحيدة، تدبرين أمر هذا الملك بحكمتك وفطنتك لولا أنى قد علمت الآن ما يملأ نفسى قلقًا وخوفًا على قلة ما يعتادنى القلق ويبلغنى الخوف».

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، وهم الملك شهريار أن يتكلم، وهم أن يأتى من الحركات ما كان خليقًا أن ينبه النائمة، ولكنه ذكر شيئًا فى اللحظة الأخيرة فانسل من الغرفة فى هدوء كما انسل إليها.

ولم يكد ينتهى إلى غرفته حتى دعا إليه قواد الحرس الذين يقومون دون غرفته ودون غرفة شهرزاد. فلما مثلوا بين يديه قال لهم فى صوت مهيب رهيب: «إن بقاء رءوسكم فى

أماكنهـا رهين بأن يجهل الناس جميعًا، والملكة فى أولهم، مـا كان منذ الليلة. فـلا أعلمنَّ أن أحدًا قـد عرف خروجى مـن هذه الغرفة والرجوع إليها. وإنى أقسـم لا ينتهى إلىَّ ما يدل على ذلك أو يشـير إليه إلا ضربت أعناقكم جميعًا، وقد تعلمـون أنى لا أوعد إلا تحقق الوعيـد». قالوا جميعًا: «فإنا لا نعلـم أن مولانا قد خرج من غرفته أو عاد إليها، وما نكاد نفهم من حديث مولانا شيئًا، ولولا أن علينا أن نأتمر وليس لنا أن نسـأل لاستوضحنا مولانا بعض ما يقول!» قال الملك: «أرى أنكم قد فهمتم عنى ما أريد. فانصرفوا راشدين».

ثم أوى إلىسريره فاستمتع بنوم لذيذ طويل، لا تروعه فيه الأحـلام ولا تزعجه عنه أحاديث تلك الأرواح الهائمة التى تنطلـق فى الفضاء وهى تجمجم ببعـض الألفاظ فيفهم عنها الناس أحيانًا ولا يفهمون عنها فى أكثر الأحيان، وكان الملك خليقًـا أن يمضى فى نومه هذا الهادئ اللذيذ، لولا أن أحس على جبهته شـيئًا يشبه ما تعود أن يجد حين يستقبل نسيم الصباح حين تدبر النجوم ويبتسـم الليل عن كوكب النهار. فلمـا أحس هذا الروح أفـاق من نومه هادئًـا موفورًا، وفتح

عينيه فرأى شـهرزاد قائمة إزاءه وقد وضعت يدها الرخصة علـى جبهته وهـى تمد إليه نظرة غامضـة أحبها ولم يفهم منها شيئًا.

قالت شـهرزاد: «أفق أيها الملك السـعيد غير مأمور! فقد ارتفـع النهار، وأوشـكت الشـمس أن تـزول، وإن وزراءك لينتظـرون مقدمك الميمون عليهـم. ألم تتأذّن فيهم أمس بأنك ستستقبلهم متى أشرقت الأرض بنور ربها!».

قال الملك: «هـو ذاك يا أحب النـاس إلىّ وآثرهم عندى. ولكنـى أرقت منذ الليلة أرقًا طويلًا، ولم أطعم النوم إلا حين كادت ظلمـة الليـل أن تنجلـى» قالت شـهرزاد: «أرقت يا مولاى؟! وما أرّقك؟». قال الملك: « تسـألين ما أرقنى؟!» ثم سـكت لحظة همّ فى أثنائها أن ينبئ شهرزاد ببعض الأمر، ولكنه ذكر شيئًا فرد نفسه إلى رشدها وقال مبتسمًا: «أرقنى الشوق إلى قصصك العذب الجميل».

وكان الواقع من شهريار أن نفسه لم تسل عن قصص شهرزاد منذ انتهى فى الليلة الواحدة بعد الألف، وإنما كانت تتحرق شـوقًا إليه إذا أقبل ميعاده المعهود من الليل، وتتحرق شوقًا

إليه إذا أقبل النهار، وكانت تشتغل بما تشتغل به من شئون الملك والقصر، ولكنها كانت تحس دائمًا كأنها فقدت شيئًا، وكأنها لا تستطيع عنه صبرًا، وكأن الأمور لن تستقيم لها إلا أن تجد هذا الشيء الذى فقدته. وكان هذا الشعور الغامض يصاحب الملك فى جميع لحظاته، وحين كان يأتى ما يأتى من الأمر، وحين يدع ما كان يدع منه، وكان الملك من أجل ذلك منغص الحياة دائمًا، ولكنه كان يجاهد نفسه ويخفى أمره ويتكلف الرضا ويتكلف الابتسام، وربما تكلف الضحك أحيانًا، وربما أقبل على اللهو فأسرف على نفسه وعلى حاشيته فيه يريد أن ينسى، ولكنه لا يبلغ من ذلك شيئًا، فيمضى فى اللهو ليخيل إلى من حوله أنه سعيد موفور.

وقد بلغ الملك من ذلك ما أراد، فخدع حاشيته كلها، خدع أهل دولته جميعًا، وخيل إلى الذين يقربون منه أو يبعدون عنه أنه أرضى الناس عن الحياة وأسعدهم بها، إلا اثنين لم يستطع أن يخدعهما ولا أن يغرهما وهما شهريار نفسه، وشهرزاد تلك الساحرة الماهرة الماكرة التى كانت تعلم حق العلم بما يضطرب فى نفس الملك من قلق وما يملأ

قلبه من حزن، فترثى له حينًا وتشمت به أحيانًا، وتختلس إليه بين وقت ووقت نظرات كأنها السهام فيها كثير من العطف، وفيها كثير من القسوة، وفيها كثير من الإغراء الذى يثير الطمع، وفيها كثير من الإباء الذى يملأ النفس يأسًا وقنوطًا. ولكنها على ذلك كله لم تبادل الملك بشىء مما كانت تعلم، وإنما عاشت معه حفية به متلطفة له غامضة مع ذلك أشد الغموض.

فلما كان من تلك الليلة أقبل الملك على غرفته، كئيب النفس مريض القلب، قد امتلأ رأسه بخواطر أقل ما توصف به أنها كانت قاتمة شديدة القتمة، ولكنها كانت ربما احمرّت لحظة قصيرة ثم عادت إلى ظلمتها المظلمة وسوادها المشتق من سواد الليل. فقد كان الملك يائسًا أشد اليأس من شهرزاد قد عجز عن فهمها. وكان ضيقًا أشد الضيق بشهرزاد، قد كَلّ عن احتمال عشرتها، فكان عليها ساخطًا أشد السخط، وكان لها محبا أشد الحب. وكان يهم أحيانًا بأن يتقاضاها شيئًا من الوضوح والجلاء فى سيرتها وفى لفظها ولحظها، ويهم أحيانًا أخرى أن يتقدم إليها فى أن تستأنف ذلك القصص

الذى لا يستطيع عنه صبرًا، ولكنه كان واثقًا بأنه يستطيع أن يتقاضاها ما شاء فلن يظفر منها إلا بما تشاء هى. ولن تشاء هى إلا هذا الغموض الذى أصبح لا يطيق له احتمالاً. هنالك كانت خواطر نفسه تصطبغ بحمرة الدم. فقد كان يرى نفسه مقبلًا على شهرزاد يضمها إليه ضما شديدًا عنيفًا، ويهدى إليها قبلات محرقة ملتهبة، حتى إذا بلغ به الحب والهيام أقصاه أغمد خنجره هذا الدقيق فى صدرها هذا الناصع الجميل، وتلقى ما يفيض به هذا الينبوع من دمها الحار، فلعله أن يشفى ما كان يجد من هذا الظمأ الذى لا شفاء له. على أنه كان لا يكاد يلم بهذا الخاطر الأحمر، أو كان هذا الخاطر الأحمر لا يكاد يلم به، حتى تأخذه رعدة عنيفة. فقد كان ضيقًا بشهرزاد أشد الضيق، ولكنه كان يجد سعادته فى هذا الضيق، ولذته فى هذا الألم، وراحة نفسه فى تعبها من هذا الغموض. ومن يدرى! لعله لو انجلت له نفس شهرزاد وألغيت بينه وبينها الحجب فرآها واضحة ناصعة كأنها فلق الصبح لامتلأت نفسه حزنًا وحسرة؛ فإن العشاق لا يكرهون شيئًا كما يكرهون الراحة المطردة. ولا يضيقون بشىء كما

يضيقــون بهذا الوضــوح الجلى. هم فى حاجــة دائمًا إلى أن يشــكوا، فهم فى حاجة دائمًا إلى أن يجدوا مصدرًا للشكوى. هم كطلاب المثــل العليا لا يقربون منها إلا لتبعد عنهم، ولو قد بلغوها وانتهوا منها إلى ما يرضيهم لكانوا أشــقى الناس بذلك وأشــدهم عليه سخطًا؛ فســعادتهم فى الطموح المستمر والجهاد المتصل، لا فى بلوغ الغاية والانتهاء إلى الأمد.

بهذا كله وبأكثر من هذا كله كانت نفس شهريار تضطرب حين أوى إلى ســريره من تلك الليلة، وقد أرقته هذه الخواطر شــيئًا، ولكن النوم لم يلبث أن أســرع إليه واشتمل عليه. ثم سمع فيما يسمع النائمون حين يلم بهم طائف الحلم كأن قائلا يقــول له: «إنك لضعيف مغرور تعنّى نفســك فى غير عناء، وتشــقّ عليها فى غير مصدر للمشــقة. أنت مشوق إلى قصص شــهرزاد لا تســتطيع عنه صبرًا، فهل علمت أنها هى أيضًا مشــوقة إلى هذا القصص لا تســتطيع عنه إعراضًا؟ أنت ضيق بغموض شهرزاد لا تستطيع له احتمالا، فهل علمت أنها هى أيضًا ضيقة بوضوحك لا تســتطيع له اســتقبالا؟ أنت تريد أن تلهو عن غموض شــهرزاد بما تقــص عليك من حديث، وهى

أيضًا تريد أن تلهو عن وضوحك بما تقص عليك من أخبار. أنت ترى فيها المرأة الماكرة التى لا تؤتمن والتى لا تحتمل عشرتها إلا أن يستعان عليها بما يلهى عنها، وهى ترى فيك الرجل القاتل الغادر الذى يلتمس لذته حتى إذا ظفر بها ألغى مصدرها إلغاء، فلا سبيل إلى اتقاء شره إلا بتلهيته والتلهى عنه. أنت مشوق إلى أن تسمع منها وإلا قتلتها. وهى مشوقة إلى أن تتحدث إليك وإلا قتلتك. وقد انتهت أحاديثها إليك فى اليقظة، ولتبدأن أحاديثها إليك فى النوم، وستجد أنت لذة فى هذه الأحاديث، وستجد هى راحة فى هذه الأحلام. أفق إذًا من نومك واذهب إلى غرفتها متلطفًا مترفقًا. فإذا بلغتها فاجلس من سريرها غير بعيد وانتظر، فستسمع منها ما يرضيك.

وقد خيُل إلى شهريار أن طائفه ذاك قد ألقى إليه حديثه هذا الطويل فى وقت يعد له طولا كما تعوّد الناس أن يتحدث بعضهم إلى بعض، ولكنه لو اطلع لرأى أن طائفه ذاك لم يلمّ به إلا لحظة قصيرة جدًّا ألقى إليه حديثه فيها جملة. وآية ذلك أنه أفاق فأنكر هذا الطائف مرة ومرة. ولكنه كان كلما عاد إلى

النــوم وعاد النوم إليه سمع هذا الحديث كله من طائفه فأفاق منكرًا لما سمع. يرى أنه لم ينم وإنما أغفى إغفاءة قصيرة أقصر من أن تطول لهذا الحديث، فلما ألحّ عليه الطائف بحديثه لم ير إلا أن يجرب الأمر ويعبر الرؤيا ويختبر صدق هذا الحلم. فســعى إلى غرفة شــهرزاد فرأى فيها ما رأى وسمع فيها ما سمع، وأمر أحراســه وأحراس الملكة بما أمر، ثم أسلم نفسه إلى النوم واطمأن إلى صدره الوثير حتى اســتلتّه منه شهرزاد بيدها الرخصة الناعمة وصوتهــا العذب الجميل، ووجهها المشرق الوضاء، ونظرتها تلك الغامضة أشد الغموض.

ومع ذلك فقد أنفق شــهريار نهــاره هادئًا مطمئن النفس رضى البال متصرفًا فى أموره كما تعود أن يفعل قبل أن يعتريه هذا القلق، لا يحس خوفًا ولا إشفاقًا، ولا يشعر أنه فقد شيئًا ولا يجد فى التماس هذا الشيء، ولا يضيق بعشرة شهرزاد، ولا يكــره ما كان يحس فيها من هذه الكبرياء البغيضة التى هى مزاج من الرثاء له والقسوة عليه.

ولم يتغير من سيرة شهرزاد شيء؛ فقد كانت كعهد الملك بها غامضة دائمًا حرة اللفظ واللحظ، ولكنها كانت تشيع من

حولها شـيئًا غريبًا لا يعرف كنهـه ولكنه كان يبعث الأمن والأمل والاطمئنان.

٣

فلمـا كانت الليلة العاشـرة بعد الألف أنفق الملك شـطرًا مـن الليل بين وزرائه وندمائـه، يخوض معهم فى ألوان من الحديث ويجاذبهـم أطرافًا من اللهو، ثم صرفهم حين تقدم الليـل كعادته، وخلا إلى الملكة بعد ذلك فقضى معها شـطرًا آخر من الليل، ذاق فيه من النعيم ما شاء حبه لشهرزاد وما شـاءت قدرة شـهرزاد على فتنة المحبين وإمتاعهم بنعماء الحب وبأسائه جميعًا.

ثم افترق العاشـقان بعـد أن كاد الليل يبلغ ثلثيه، وثاب الملك إلى غرفته، ولكنه لم يأو إلىسـريره، وإنما لبث سـاعة يـتردد أينكر ما كان فى الليلة البارحة ويقبل على النوم كأن لم يكن شىء وكأن لم ير شيئًا، أم ينتظر حتى إذا استيقن أن شـهرزاد قد اشتمل عليها الرقاد سعى إلى غرفتها واتخذ من سريرها مجلسه ذاك، لعله يسمع منها تتمة ذلك الحديث، وكان إلى تتمة ذلك الحديث مشـوقًا أشـد الشوق، وكان فى

الوقت نفســه عظيم الشك فى أن تســتقيم له الأمور من ليلته هذه كما استقامت له من ليلته تلك.

وإنه لفى هذا التردد لا يدرى أيُقدم أم يحجم، وإذا النوم يأخذه فى مجلسه وقتًا لا يدرى أكان طويلا أم قصيرًا، ولكنه يســمع فى آخره طائفه ذاك يقول بصوتــه الهادئ المطمئن: «لن يُهلك الإنســان إلا إسرافه على نفسه بالشك والارتياب. إن كنت فى حاجة إلى أن تســمع حديث شهرزاد، فأسرع إلى مجلســك من ســريرها فقد آن لها أن تأخذ فى الحديث. وما أراك تحــب أن تقص بقية خبرها على غرفتها تلك وما فيها من الأثاث».

هنالك أفاق شــهريار مرتاعًا مذعورًا، ولكنه لم يفكر فى شىء ولم يسأل نفسه ولا حرسه عن شىء، وإنما انسل مسرعًا حتى دخل غرفة الملكة واطمأن فى مجلسه غير بعيد من تلك النائمــة الهائمة التــى لم يصدر عنها ما يــدل على أنها قد أحســت مقدمه، ولم يمض غير قليل من الوقت حتى انتهت إلى سمعه تلك النغمات الحلوة الرشــيقة الأنيقة تحمل إليه صوت شهرزاد وهى تقول: «بلغنى أيها الملك السعيد أن الملك

طهمـــان بن زهمان قال لابنته فاتنـــة وهو يحاورها إننى قد علمت الآن ما يملأ نفســـى قلقًا وخوفًا علـــى قلة ما يعتادنى القلق ويبلغنى الخوف».

قالت فاتنـــة وقد ترددت فى عينيها دموع حائرة تدفعها الرحمة لأبيها ويمســـكها الإشفاق عليه، أن يزداد حزنًا إلى حزن واكتئابًا إلى اكتئاب: « ويحى عليك يا أبت! ما عرفتك قبل اليوم حافلًا بالقلـــق أو معنيًّا بالخوف. وما أرى إلا أنك تفكر فى ابنتك فتكثر التفكير، ويسوءك أنك حين تفارق هذه الحيـــاة لن تترك لها أخًـــا ولا نصيرًا. ولكنى أحب أن تطيب نفسًـــا وتقر عينًا؛ فـــإن ابنتك قد تعلمت منـــك كيف تواجه الحياة وتثبت لخطوبها وتنفذ من مشـــكلاتها. وإنى منبئتك الآن بما يثير فى نفسك القلق ويبعث فى قلبك الخوف». قال أبوهـــا: «وما أنت وذاك يا ابنتى! ومـــن أين لك العلم بما لم ترتفع به الأنباء إلا إلىّ! ولم ترتفع به الأنباء إلىّ إلا الســـاعة قبل أن ألقاك بلحظات!!» قالت فاتنة: «فاسمع منى قبل كل شـــىء. فإن يكن ما أنبئك به صحيحًا كان ذلك خليقًا أن يرد الراحة إلى نفسك والأمن إلى قلبك، وإن يكن ذلك غير صحيح

رددتنى إلى الصواب ووجهتنـــى من أمرى حيث تحب، فلن أعصـــى لك أمرًا، ولن أرد عليـــك قولا». قال الملك: «فهات ما عندك يا ابنتى».

قالت فاتنة: «لقد ارتفعت إليك الأنباء الساعة بأن هؤلاء الخاطبـــين الخائبين من ملوك الجن فى البر والبحر والجو، قد ســـاءتهم الخيبة وأســـخطهم ردّى لهم وإعراضى عنهم، ووقع فى نفوسهم أنى أزدريهم ولا أقدر مراتبهم حق قدرها، فاســـتحال حبهم لى بغضًا وتنافســـهم فىَّ تظاهرًا علىّ، وقد سعى بينهم السفراء، ثم كان بينهم الاتفاق، فأجمعوا رأيهم علـــى أن ينتظروا بك ما بقى من عمـــرك، وهم يرونه قصيرًا وأراه طويلا، وقد أزمعوا إذا تركت هذه الحياة أن ينصبوا لى الحرب مؤتلفين لا مختلفين، ومتظاهرين لا متدابرين، وألا يكفوا عن هـــذه الحرب حتى يدمروا ملكـــى تدميرًا، وأيهم ظفر بى فأنا أســـيرته، يمسكنى فى قصره كما تمسك الإماء؛ لا يكرمنـــى بالزواج ولا يؤثرنى بالحـــب، وإنما يصب على من العذاب ألوانًا ويســـومنى من الضيـــم فنونًا، وقد تقاسموا على ذلك بأغلظ الأيمان وأشدها إحراجًا، وكتبوا بذلك وثيقة

أودعوهـا مكانًا أمينًا حصينًا، هناك فـى قاع البحر المحيط وراء أعمدة هرقل. وإنـى لأنظر إلى صحيفتهم هذه كما أنظر إلى وجهـك الآن. وإنى لأقرأ ما كتـب فيها كما أتبين ملامح وجهك. وإنى لقادرة إن شـئت على أن آتيك بها قبل أن تقوم مـن مقامك، ولكن على أن تأخذها بيدك وتقرأها، ثم تعيدها إلى لأردهـا إلى مكانها؛ فقد سـبق القضـاء بأحداث لابد أن تقـع، وجرى القدر بأمور لابد مـن أن تكون». قال الملك وقد اضطرب اضطرابًا شديدًا، وظهرت على وجهه أمارات الرضا والدهـش جميعًا: «قد كنت أعلم يا ابنتى أن لك كما لأترابك من بنات الجن علمًا بالسـحر ونفاذًا فيه وتصرفًا فى دقائقه. وكنـت أعلم أنك قد تفوقت عليهن فـى ذلك تفوقًا ظاهرًا كما تفوقت عليهن فى كل شىء. ولكنى لم أكن أقدر أنك قد بلغت من ذلك هذا المبلغ الذى أراه! فمن أين لك يا ابنتى هذا العلم؟ وكيف انتهيت من السـحر إلى هذه المنزلة التى لم يبلغها قط أحـد من فتياننا ولا من فتياتنا؟». قالت: «ذلك خليق أن يرد نفسـك إلى الراحة وقلبك إلى الاطمئنان، فلا تحسـب لما دبر

هؤلاء الملوك حسابًا، ولا تخش علىَّ منهم غائلة». قال الملك: «هــو ذاك يا ابنتــى، ولكنى أريد أن أعــرف كيف انتهيت إلى هذه المنزلة من العلم بالســحر والنفوذ إلى أسرار الكون». قالــت فاتنة: « إنما انتهيت إلى هذه المنزلة لأنى صرفت عن هــذه الحياة الباطلة التى يحياها بنات الملوك فى ظل آبائهن ناعمــات بالعيش الرخىّ، طامعات فيما تتكشــف لهن عنه الأيام، مفكرات فيمن يسعى إليهن محبًّا أو متملقًا أو خاطبًا. صرفت عن هذا كله وعن أشــباهه إلى النظر فى حكمة الأولين والمحدثين، وإلى كثير من التجربة والاختبار، ما أعرف أن أحــدًا عُنىِ بمثلها. ولكن أتريــد أن تنظر فى صحيفة هؤلاء الملــوك». قالت فاتنة: « قبــل أن يرتد إليك طرفك». ثم مدت يدها فــى الهواء وردتها فإذا فيها علبــة صغيرة مربعة من معــدن تحمــل أختامًا كثيرة، فوضعتها بــين يدى الملك، ثم أشارت إليها فإذا هى تفتح دون أن تمس أختامها بفساد ما، ثم تخــرج منها قطعة رقيقة من رصــاص فتدفعها إلى الملك. وينظر فيها ثم يردها إليها وقد بلغ منه الدهش مبلغه وانتهى الســرور به إلى أقصاه، وهو يقول لابنته: «لا بأس عليك من

هؤلاء الملوك مهما يدبروا ويقدروا، فما أرى إلا أنك ستردين كيدهم فى نحورهم وستلقينهم بشر مما يلقونك به». قالت وقد ردت الصحيفة إلى مكانها من العلبة، وأشارت إليها فعادت كهيئتها حين جاءت بها، ثم أخذتها ومدت يدها بها فى الفضاء ثم ردت يدها فارغة كأن لم تمسك شيئًا قالت: «ولأريَنَّك من أمرهم ما تحب وما يكرهون». قال الملك: «وما ذاك يا ابنتى؟». قالت «إنهم يأتمرون بهذا الملك ليدمروه، وبصاحبته ليستذلوها، وهم من أجل ذلك يهيئون للحرب ويجهزون لها جهازًا لم يجهزه أحد من قبل؛ فإن الحرب لا يقتلها إلا الحرب، وإن الكيد لا يفسده إلا الكيد، وإن الحديد لا يفله إلا الحديد كما يقول هؤلاء الجيل من الناس الذين يعيشون حولنا فيما يقولون من حماقاتهم». قال الملك: «وإنك إذًا لتريدين أن تسبقيهم إلى الحرب. وما أنت وذاك وهم متفروقون فى أقطار الأرض والبحر والجو، ولا قبل لك بغزوهم جميعًا فى مستقرهم؟». قالت: «لن أغزو أحدًا فى مستقره، ولكنى سأغزوهم حول هذه المدينة. سأثيرهم إلى الحرب حتى إذا ثاروا إليها واندفعوا فيها وألقوا بكل ما

أعدّوا من عدة وما حشـدوا من جند، رأيت كيف يكون إفناء القوة، وكيف يكون دحر الأعداء».

وهـمَّ الملك أن يتكلمَّ، ولكن فاتنة لم تمهله، وإنما قالت: «هوّن عليـك، فلن أعلن على أحد حربًا، بل لن أسـوء أحدًا منهـم، ولكنى معلنة إليهم جميعًـا أنى قد أزمعت أن أتخذ لى مـن بينهم زوجًا، وأنى مختارة من بينهم من اسـتطاع أن يقهـر هذه المدينة بما عنده من عدة وعدد، فسـتراهم يومئذ وقد جمعوا جموعهم وحشدوا قواهم وأقبلوا يريدون أن يدكوا هذا الملك دكًا، منهم من لا يريد إلا النصرالذى يتيح له الظفر بى، ومنهم من يريد أبعد من ذلك وأنأى مرَامًا، يريد التدمير الـذى لا تدمير بعده ليخلص من قوة طالما فكر فى أن يخلص منهـا». قال الملك: «وإنك لفاعلـة هذا ؟» قالت: « ما أريد أن تفارقنى وفى نفسك ظل من خوف علىّ أو إشفاق مما قد يدبر هؤلاء الملوك لى من كيد».

ثم أشـارت بيدها إشـارة خفيفـة فما أسـرع ما فتحت الأبواب، وأقبل الوزراء ورجال القصر، فأعلنت إلى أبيها بين أيديهم أنها قد غيرت من رأيها، وعدلت عن سيرتها الأولى،

وفكرت فى أن تتخذ لنفسها زوجًا، ولكنها لا تريد أن يكون زوجها ضعيفًا أو متسلطًا على دولة ضعيفة؛ إنما تريد أن تقترن بأقوى ملوك الجن قوة، وأشدهم أيدًا، وأعظمهم بأسًا، وأبعدهم صوتًا، وتريد أن تختبر ذلك بنفسها، وأى ملوك الجن استطاع أن يقهر مدينتنا هذه ويدخلها عنوةً فأنا له زوج وملكى لملكه تبع. وقد اضطربت نفوس الوزراء ورجال القصر لهذا الحديث حين سمعوه؛ فقد رأوا أهوال الحرب تصب على بلادهم صبًّا، وأشفقوا مما تجره الحرب عليهم وعلى الرعية من مكروه، وهم غير واحد منهم أن يراجع الأميرة فيما قالت، ولكنها أشارت إشارة خفيفة فانعقدت الألسنة وغضَّت الأبصار، وانحنت الرءوس، وخرج رجال القصر وقد أذعنوا للأمر. وقال وزير الملك: إنه مبلغ تحدى الأميرة لملوك الجن جميعًا من فوره. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وعاد شهريار إلى غرفته ناعم البال بما سمع، ولكنه كان مضطرب النفس أشد الاضطراب. فلم يكن شهريار كعهد الناس به حين كانت تقص عليه أحاديث «ألف ليلة وليلة» ثائر النفس، جامح الشهوة، سيء الظن بالمرأة، مستجيبًا

لغرائــزه حين تدعــوه إلى ما تدعوه إليه من الخير والشــر، إلا أن يلهى عنها بفنــون الحديث، وإنما كان رجلًا آخر قد خلقته شهرزاد خلقًا جديدًا.

كان كثير التفكير متصل التروية، لا يرى شيئًا إلا اجتهد فــى أن يعرف مصدره وغايته، ولا يســمع شــيئًا إلا جد فى أن يفهــم ظاهره وتأويله، وكان هذا الجهــد العقلى الطارئ عليــه يعنيــه أول الأمــر، ولكنــه اتصل حتى أصبــح عادة لشــهريار، وإذا هو مفكــر دائمًا، مقدر دائمًــا، منفق وقته وجهــده فى التحليل والتعليل، لا ينصرف عن ذلك إلا حين تشــغله شــهرزاد بجدها قليلًا وبدعابتها كثيرًا. وفى الحق أن شــهرزاد لم تكن تشغله عن التفكير، وإنما كانت تريحه منــه وقتًا ما، حتى إذا انصرفت عنه ردته إلى التفكير، وإلى التفكير الذى يزداد شــدة وعنفًا كلما لقى شهرزاد وانصرف. وقد تركت فى نفسه وأمام عقله من الألغاز والأسرار ما يكلفه الجهد المضنى دون أن ينفذ إلى أعماقه.

وكان أمر شــهريار قد شــق على الناس جميعًــا؛ فوزراؤه ورجال حاشــيته قد أنكروا منه هذا الهدوء الذى لا عهد لهم

به، وهذه الدقة فى القول والعمل جميعًا، وهذه الدقة فيما كان يوجه إليهم من حديث، وقلة الرضا بما كانوا يقدمون إليه من رد، لأنــه كان يريدهم على أن يصطنعوا الدقة كما يصطنعها، ويمعنوا فى التفكير كما يمعن فيه.

وإنما كانت شــهرزاد وحدها هى التــى لم تنكر من الملك شــيئًا، ولم ينكر منها الملك شيئًا. كانت تلقى هدوءه بهدوء مثله وتفكيره بتفكير أشد منه تعمقًا، وكانت تسمع أحاديثه الدقيقة فترد عليه بأحاديث أشد منها دقة، حتى استعجمت أحاديثهمــا أو كادت تســتعجم على الذيــن كانوا يحضرون مجالســهما من أهــل القصر ورجــال الدولة. وقد شــاع بين أولئك وهؤلاء أن طائفًا غريبًا قد ألم بالقصرفأفســد على هذين العاشــقين أمرهما، فهما يقولان ما لا يُفهم، ويتناجيان بما لا يُــدرك، والغريب أن الملكة تفهم عن زوجها كل ما يقول، وأن الملك لا يفهم عنها إلا قليلا! تلك كانت حال شــهريار. فليــس غريبًا إذًا أن يعود إلى غرفته بعد أن أدرك شــهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، هادئًا مضطربًا معًا، تجيش

فى رأسه خواطر غريبة عن حديث فاتنة هذا الذى استأنفته شهرزاد منذ ليلتين.

وقد كان شهريار فيما مضى يسمع قصص شهرزاد فيفهمه ويرضى عنه ويلهو بظاهره، لا يتكلف له تأويلًا ولا تعليلا، ولا يلتمس لألفاظه الواضحة السهلة معانى ملتوية معقدة، ولكنه الآن يسأل عن فاتنة هذه من تكون وما تكون؟ وهل هناك سبب بينها وبين شهرزاد؟ وهل هناك صلة بين قوتها الجامحة الثائرة وبين هذه القوة الهائلة التى تتسلط بها شهرزاد على كل من دنا منها أو نأى عنها؟ وهل هناك صلة بين ازدراء فاتنة لملوك الجن وازدراء شهرزاد لملوك الإنس، فما من شك فى أن شهرزاد لا تزدرى ملوك الإنس وحدهم، ولكنها تزدرى الملوك والرعية جميعًا، وما من شك فى أن شهرزاد تزدرى شهريار نفسه، وإلا لتلقته بنفس مشرقة مسفرة، ولجنبته هذه السيرة الغامضة وهذه الأحاديث الملتوية.

وهنا كان الدم يغلى فى عروق شهريار، وتعود إليه غريزته الأولى عنيفة طاغية، فينهض واقفا وقد جاشت فى نفسه عواطفه

الثائرة، واضطربت فى رأســه خواطره الحمراء. ولكنه لا يلبث أن تتمثــل له ابتســامة حلــوة أهدتها إليه شــهرزاد فى بعض الحديث، أو دعابة ظريفة ســاقتها إليه شــهرزاد فى ساعة من ســاعات اللهو، أو نظرة رحيمة نظرتها إليه شهرزاد فى لحظة من لحظات الحنان، وإذا هو يثوب إلى نفســه هادئًا وادعًا كأنه الطفــل، نادمًا على ما قدم من ســوء الظن بهــذه التى لا ينبغى أن تساء بها الظنون.

وكذلك أنفق الملك السعيد بقية ليله شقيًّا محزونًا مضطرب النفس مختلط الأمر، لا يســتقر فى مجلسه إلا لينهض منه ويمضى فى غرفته ذاهبا آئبًا، وربما أشــرف من النافذة فملأ صدره من نســيم الليل بما يحمل مــن عطر رطب لذيذ، وملأ عينيه من ظلمة الليل بما يضطرب فيها من ضوء ضئيل نحيل. ولكن الشــىء المحقق أنه لم يأو إلى ســريره ولم يفكر فى أن يــأوى إليه، إنما قضى بقية ليله ســائرًا حائرًا، وكان خليقًا أن يقضيها هادئًا راضيًا بعد ما سمع من قصص شهرزاد. وقد كان يسأل نفسه عن مصدر هذه الحيرة وعن علة هذا السهاد، وكان يقــدر أنه يجد فى قصص شــهرزاد مــا كان فى حاجة

إليه من نسيان نفسه ونسيان الناس والتجرد من هذا العالم الثقيل عليه البغيض إليه، كما كان ذلك شأنه حين كانت شهرزاد تمتعه بقصصها اليقظان. فأما هذا القصص النائم فإنه لا ينقع له غلة ولا يشفى له صدى، وإنما يزيده ظمأ إلى ظمأ وتحرقًا إلى تحرق؛ فهو أشبه شيء بهذه الأشربة الحادة التى يظمأ إليها الراغبون فى السكر، يظنون أنها ستبرد أكبادهم وتطفئ ما فى أحشائهم من لهب، ولكنهم لا يتجرعون كؤوسها حتى تزداد أكبادهم احتراقًا ويزداد اللهب فى أجوافهم تلظيًا واضطرامًا؛ فهم يتداوون منها بها، كما يقول الأعشى، ويتخذون داءها دواء، كما يقول أبو نواس، ولو قد استطاع شهريار أن يجعل ليل شهرزاد كله حلمًا ينطق بهذا الحديث العذب والقصص الجميل لفعل. ولكن من له بذلك وقد قدرت له أحلام صاحبته تقديرًا وقطرِّت له أحاديثها تقطيرًا؛ فهى تبدأ فى موعد موقوت لا تستطيع أن تسبقه، وتنتهى عند أجل محدود لا تستطيع أن تتجاوزه. وقد كان قادرًا على أن يستزيد شهرزاد حين كانت تحدثه مستيقظة، وكان قادرًا أن يستوضحها إن أشكل

عليه بعض الحديث، فأما الآن فهو لا يستطيع أن يستزيدها ولا أن يستوضحها؛ لأنها لا تعرف أنها تقص عليه شيئًا، ولا تعقل مما تقص عليه شيئًا. بل هو لا يستطيع أن يشير إلى هذه الأحاديث التى تلقيها إليه أحلام شهرزاد، فقد قال له طائفه فيما قال: «احذر أن تنبهها من قريب أو بعيد إلى هذا القصص؛ فإنك إن تفعل لم تزد على أن ترد عنها الأحلام وتحرم نفسك ما بقى لها من هذه اللذة المختلسة».

وكان الضيق قد بلغ بشهريار غايته حين بلغت أذنيه أصوات الطير المستيقظة وهى تستقبل النهار فرحة مرحة، وتتلقى ضوء الشمس مبتهجة به أعظم الابتهاج نشيطة له أشد النشاط. وقد وقعت هذه الأصوات العذبة المختلفة من نفس الملك أحسن وقع، فثاب إلى قلبه المذعور شىء من أمن وإلى نفسه اليائسة شىء من رجاء، وإذا هو يجد حاجة قوية إلى أن يغتدى مع الطير، ويسلم نفسه إلى هذه الطبيعة الحرة المرحة المبتهجة، فيفنى فيها ويصبح جزءًا من أجزائها وعنصرًا من عناصرها ساعة أو ساعات. وها هو ذا يسعى إلى طنف من أطناف الغرفة، فيشرف منه على هذه الجنة المطيفة بالقصر،

والتـــى لا يبلغ الطـــرف أرجاءها مهما يمتـــد ومن أى ناحية يمتـــد، وإذا هو يفتح صدره للنســـيم العـــذب، وعينه للضوء المشـــرق، وسمعه للأصوات التى يتغنى بها الفضاء العريض. وإذا هو ينسى نفســـه أو يكاد ينساها، لا يكاد يشعر إلا بأنه يخطو خطوات متثاقلة يتبع بعضها بعضًا فى أناة وبطء، وقد ذهل عما حوله وذهل عنه ما حوله. وهو يهبط درجات السلم رزينًا متثاقلًا يكاد يترنح ترنح الثمل السكران. وهو يسعى لا يكاد يحس خطاه لأن قدميه لا تمسان الأرض، وإنما تتنقلان على هذا البساط الكثيف الذى نسجته الطبيعة ونسجه معها البستانيون من ســـندس العشب. وما يزال كذلك يسعى أمامه لا يلوى على شىء حتى يحس فى مثل الحلم كأنه ينعطف عن غير إرادة إلى اليمـــين لأن طريقه كانت تقتضى الانعطاف إلى يمين، فيمضى ويمضى، وهو يحس فى نفســـه حسرة ضئيلة خفية لأنه لا يســـتطيع أن يســـتمتع بما حوله من فنون الزهر والشـــجر، وقد تعودّ حين كان يسعى فى جنته هذه ألا يتقدم إلا ليتأخـــر وألا يمضـــى إلا ليقف. وكانت لـــه وقفات طويلة عند هذه الألوان من الزهر الذى نُسِّـــق أجمل تنسيق وأروعه،

يحــدّق فى هذه الزهرة ويمتحن هذا النجم، وربما تحدث إلى هذا البستانى أو ذاك سائلا حينًا وآمرًا حينًا آخر، ولكنه فى هذا اليوم يمضى أمامه لا يلوى علىشــىء ولا يفكر فى شــىء ولا يقف عند شىء.

وليس من المحقــق أنه كان يرى هؤلاء البســتانيين الذين كانوا ينهضون إذا رأوه مقبــلاً من بعيد فيحيون وينتظرون أن يلقى إليهم الســؤال أو يصدر إليهم الأمر. يبتهجون بذلك فى دخائل ضمائرهم ويتمنون به الأمانى.

ولكــن الملك كان يمــر بهم ذاهلا عنهــم، أو كان ينظر إليهــم نظــره إلى التماثيل القائمة التــى لم يكن ينتظر أن تســمع منه كلامًا أو ترد عليه رجــع حديث. وكان هؤلاء البســتانيون يُسقَطُ فى أيديهم إذا مر بهم الملك غافلا عنهم غير مكــترث بهم، فيردون أنفســهم إلى التعزى عن هذه الابتســامة التى كانوا ينتظرونها، وعــن هذا الأمل الذى كانــوا يداعبونه، ويقول بعضهم لبعــض: «ما بال مليكنا كئيبًا محزونًا منذ اليوم؟».

ولكن ملكهم لم يكن كئيبًا ولا محزونًا، وإنما كان نشوان ثملا قد صرفته الحياة عن الأحياء وصرفته الطبيعة عن الناس

والأشـياء؛ فهو يمضى أمامهم لا يلوى على شىء، حتى إذا بلـغ من جنته مكانًا بعينه انحرف إلى شماله فمضى فى ممر ضيق ضئيل تحف بـه من جانبيه أشـجارضخام فى الفضاء طـوال فى السـماء، قد تضامت غصونهـا واختلطت أوراقها حتى انعقد منها سـقف كثيف لا ينفذ منه ضوء الشمس إلا ضئيلا هزيلا بعد مشـقة شـاقة وجهد جهيد، والملك يمضى أمامـه فى هذا الممر الضيق كأنه النفق، حتى إذا مشـى غير قليل انفرجت هذه الشـجرات الملتفـة المتكاثفة قليلًا قليلًا، حتـى جعلت بينها مكانًا رحبًا فسـيحًا قد فرش بالعشـب المتكاثـف، وقامـت فى أطرافـه نجوم وأزهـار لاذت بهذه الأشـجار الضخام الطوال كأنما تحتمـى بضخامتها وطولها من العاديات. هنالك وقف الملك فأطال الوقوف، وتنفس هذا الهواء العـذب الرطب فأطال التنفس، ثم جلس على الأرض متهالكًا متثاقلًا، ثم أسلم نفسه إلى ما حوله، فلم يشعر بشىء ولم يحس شـيئًا، ولكنه يفيق من نومه مذعورًا أو كالمذعور؛ فقد سمع صوتًا حلوًا يشـبه صوت الماء وهو يتحدر فى غديره ذاك بين النرجس والياسمين لولا أن فى هذا الصوت حياة لم

يتعود أن يجدها فى خرير الغدير، ولولا أن فى هذا الصوت تقطعًا وتكسرًا وتهالكًا، لم يتعود أن يجد مثله فى تحدر الماء بين النرجس والياسمين، ويفتح الملك عينيه، فيرى فتنة لا تلبث أن تملك عليه سمعه وبصره وقلبه وعقله جميعًا.

هذه شهرزاد قائمة منه غير بعيد، تنظر إليه نظرات فيها الحنان والمكر، وهى مغرقة فى ضحك هادئ عذب يرتفع له صدرها وينخفض، ويغشّى وجهها بغشاء من الجمال الرائع ليس إلى تصويره من سبيل. وهذا الملك ينظر إليها مسحورًا مبهورًا، وهى تضحك من ذهوله وحيرته - ولكنه ينهض خفيفًا ويسعى سريعًا، حتى إذا بلغها أو كاد جثا أمامها غاضًا بصره إلى الأرض رافعًا يديه إلى السماء كأنه المؤمن الذى يتقرب إلى التمثال. وهى تضع يدها على رأسه ضاحكة كأنها تبارك عليه، ولكنها لا تلبث أن تستحيل إلى حنان خالص، وإذا هى تميل إليه مترفقة فتضع على جبهته قبلة حلوة حارة طويلة. ولو أنها تحدثت فى تلك اللحظة لأحس شهريار فى صوتها تهدج العبرات التى تريد أن تندفع من العيون، ولكنها الإرادة القوية تمسكها

فيظهـــر أثر هذا الصراع فى الصـــوت المحتبس والألفاظ التى لا تبـــين. ولكنها لم تقل شـــيئًا، وإنما اســـتقام قدها المعتدل وامتدت يدها الرخصة إلى الملك فأنهضته صامتة، واستجاب لها الملك صامتًا طيعًا، فمضت به خطوات إلى نشز من الأرض قريب يكسوه العشب فأجلسته وجلست إلى جانبه، وأحاطت عنقه بيدها ثم أمالته فى رفق حتى وضعت رأسه على كتفها، وظلت تنظر إليه، وظل ينظـــر إليها وهما مغرقان فى صمت عميق. ثم يســـمعها شـــهريار تتحدث إليـــه فى صوت هادئ وادع وهى تقول له: «ألم يأن لنا بعد أن نهبط من السماء وأن ننزل إلى الأرض فنعيش فيها مع الناس؟».

ولكن شهريار لا يجيبها، وإنما تنحدر من عينيه دمعتان هادئتان تمســـحهما شـــهرزاد فى رفق، ثم تنعطف إلى الملك فتقبـــل جبهته مـــرة أخرى، ثم تقيمه حتى إذا اســـتوى فى مجلســـه جعلت تمر أصابعها فى شـــعره رفيقة به باسمة له مطيلـــة النظر إليه صامتة مع ذلك لا تقول شـــيئًا. وكأن هذا العطف الصامت الحار قد بعث الحياة والنشاط فى قلب الملك وجسمه وفى عقل الملك وإرادته؛ فهو يرفع رأسه إلى شهرزاد

ويسألها فى صوت كأنه يأتى من بعيد: «ألا تنبئينى آخر الأمر: من أنت؟ وماذا تريدين؟» قالت وقد استردت نشاطها ومرحها وانحسر عنها العطف والحنان كما ينحسر البحر عن الساحل ساعة الجزر وبدت مداعبة شموسًا: «من أنا؟! أنا شهرزاد التى أمتعتك بقصصها أعوامًا لأنها كانت خائفة منك، والتى تمتعك بحبها الآن لأنها واثقة بك مطمئنة إليك. وماذا أريد؟! أريد أن أرى مولاى الملك راضيًا سعيدًا ناعم البال رخىّ العيش مبتسمًا للحياة كما تبتسم له الحياة».

ولم يكد شهريار يسمع هذا الصوت الحلو يحمل إليه هذه الألفاظ الساحرة حتى أطرق إلى الأرض غاضا بصره متهالكًا، كأنه الطائر القوى، هم أن يرتفع فى أجواء السماء فأثقلته قوة قاهرة لم يستطع لها مقاومة، فارتد إلى الأرض وجثم عليها مذعنًا مقهورًا، وتدنو منه شهرزاد فتمسح على رأسه وتنظر فى وجهه وترسل إليه هذه الابتسامة الغامضة فيتلقاها مشفقًا مغيظًا فى وقت واحد، ثم يظلان على هذا الوضع لحظات، وإذا هو يسألها «ألا تجلسين!». فتستجيب له كما تستجيب الأمة الخاضعة للسيد المتسلط. فلا يزيده

هذا إلا حيرة وغيظًا. وهو يعيد سؤاله فى صوته الهادئ الذى كأنه يأتى من بعيد: «ألا تنبئينى آخر الأمر من أنت؟! وماذا تريدين؟». فتجيبه هذه المرة فى صوت جاد فيه كثير من الرحمة والحنان: «من أنا؟! أنا شهرزاد التى أحبتك قبل أن تعرفك كما لم تحب فتاة رجلا قط، والتى خافتك حين عرفتك خوفًا لم يخفه إنسان إنسانًا قط، والتى زفت إليك تتحدى الموت وتتحدى السلطان وتتحدى الحب والبغض جميعًا، فبلغت من نفسك هذه المنزلة التى تراها أو التى لا تراها، ثم أصبحت الآن وهى لا تفكر إلا فيك ولا تفكر إلا بك ولا تفكر إلا لك. ماذا أريد؟! أريد أن تكون سعيدًا موفورًا، ولكنى لا أعرف كيف أجعلك سعيدًا موفورًا. من أنا...! أنا من تحب أن ترى فى أى ساعة من ساعات النهار، وفى أى ساعة من ساعات الليل. أنا أمك حين تحتاج إلى حنان الأم، وأنا أختك حين تحتاج إلى مودة الأخت، وأنا ابنتك حين تحتاج إلى بر البنت وأنا زوجك حين تحتاج إلى عطف الزوج، وأنا خليلتك حين تحتاج إلى مرح الخليلة، أنا كل هذا. وماذا أريد؟! أريد ما تريده الأم لابنها، وما تريده الأخت لأخيها، وما

تريده البنت لأبيها، ومـا تريده الزوج لزوجها الوفى، وما تريده العشيقة لعشـيقها المفتون، وقد سألتنى فألحفت على فى السؤال، أفتأذن لى فى أن أسألك؟» فيرفع الملك إليها بصره كالمنكر لما تقول، ولكنها تتضاحك وتتماجن وتسأله: «كيف أراك فـى هذا المكان من جنة القصر حين كان ينبغى أن أراك فى غرفتك تتهيأ للخروج إلى حيث تستقبل وزراءك وتصرف أمـور ملكك، أو أراك قد خرجت مبكرًا فأقبلت على شـئون الدولـة تصرفها حفيًّا بها مكبًّا عليها. وكيف أذنت لنفسـك فى أن تنسل من غرفتك على هذا النحو الذى لم يعتده الملوك، وعلى هذا النحو الذى لم يألفه المحبون؟ فأنت لم تؤذن أحدًا من رجال حاشـيتك بأنك مقبل على هذا المكان القصى. ولولا أنك مراقب فى قصرك كما يراقب أشـد النـاس عداء للدولة وخطرًا عليها لوجدت مشقة كل المشقة فى الاهتداء إلى مكانك هذا. ثم أنت لم تؤذنى ولم تؤذن أحدًا من وصائفى بسعيك إلى هـذا المكان. وقد كنت خليقًـا أن تذكر أنى لا أكاد أنهض من مضجعى وأفرغ من زينتى حتى أسـعى إلى غرفتك لتكون أول مـن يرانى ولأكون أول من يراك. أترى إلى ذنوبك يا مولاى!

إنها عظيمة جسيمة، وإنك خليق أن تستغفر منها إلى أمَتك هذه التى تعفيك من الاعتذار وتستغفرك من تحدثها إليك فى هذه اللهجة القاسية التى إن صورت شيئًا فإنما تصور الحب والإشفاق والحنان».

ثم تضمه إليها وهى تقول: «حدثنى الآن كيف انتهيت إلى هذا المكان؟! أم تريد أن أحدثك أنا بهذا الحديث». قال شهريار: «وإنك لتعلمين كيف انتهيت إلى هذا المكان؟». قالت وقد عادت إلى ابتسامها الغامض وصوتها الغريب: «إنك يا مولاى ملك عظيم، ولكنك على ذلك تمر بأطوار الطفل الصغير. وأى عسر فى أن أقص عليك بدء حديثك؟ لقد أيقظتك أمس حين أوشكت الشمس أن تزول، وأنبأتنى بأنك قضيت الليل مؤرقًا مسهدًا. ولقد اجتهدت فى أن أسرِّى عنك وأردك إلى ما ينبغى لك من الدعة والرضا، وخيِّل إلى أنى تركتك أمس راضيًا محبورًا، ولكنى استيقظت مبكرة وأسرعت إلى غرفتك. فلما لم أرك فيها ورأيت بابها إلى الطنف مفتوحًا استيقنت أنك قد أرقت من ليلتك هذه أكثر مما أرقت فى ليلتك تلك، واستيقنت أنك قد ضقت بغرفتك فخرجت منها مع الصبح

وأخذت طريقك إلى مـكان عزلتك هذا، فتبعتك حتى ألفيتك مغرقًا فى هذا النوم الـذى أغراه بك الجهد والإعياء، أليس هذا كل حديثـك يا مولاى! أمحتاجة أنا إلى ذكاء الرجال أو إلى كيد النساء لأعلم علمه ثم لأعيده عليك كما كان؟».

وانتظرت أن يجيبها شـهريار، ولكنـه لم يحر جوابًا. فعادت إليه تسأله متلطفة: أمستخذون نحن من هذه القصة؟ إنهـا لا تدل على براعة ولا على مهـارة ولا على قوة وأيد، وإنما تدل على ضعـف وتهالك وانحلال فى الأعصاب، ومن أجل ذلك فكرت فى أن أطب لك حتى أشـفيك من هذه العلة التـى لا أعرفها ومـا أراك تعرفها، ولكنى سـأبرئك منها على كل حال». قال مبتسـمًا: «وكيـف تبرئيننى من داء لا تعرفينه؟». قالـت فى صوت المرحة المتمردة: «فإنى طبيبة لا كالأطباء، أداوى ما أجهل وأداوى ما أعرف، وربما كنت على عـلاج الداء المجهول أقدر منى على عـلاج الداء المعروف». قال وقد اتسـع ابتسـامه وأوشـك أن يكون ضحكًا: «وكيف ذاك؟». قالت: «ذاك أنى سأقلب نفسك على جميع وجوهها، وسأرسل عليها من نفسى قوة لا تعرفها ولا تقدرها، وسأرد عليك ما فقدت من بأس وأيد. إنك لا تعرفنى. ألسـت تقول لى

ذلك فى كل وقت؟: قال شهريار حازمًا «فهذه علتى». قالت: «سأبرئك منها» قال: «ستعرفيننى نفسك إذًا؟». قالت فى كثير من الدل: سأعرفك منها ما ينبغى أن تعرف لتسترد قوتك ونشاطك؛ ولتعنى برعيتك هذه التى أخذت تهملها منذ حين. على أنى لا أدرى لماذا تريد أن تعرفنى! أضقت بحبى إلى هذا الحد؟».

فنظر إليها حائرًا كأنه لم يفهم عنها. قالت فى دلال وحدة: «لا تنظر إلىّ هذه النظرات الحائرة! إنك ملك عظيم تدبر أمور رعية لا تكاد تحصى، وقد بلغت سنك هذه التى لا يبلغها الرجل حتى يكون قد خبر الدهر وانتفع بتجاربه. ألم تعلم بعد أن الحب لا يقتله شىء كما تقتله المعرفة؟ إن كنت زاهدًا فى حبى ضيقًا به، فإنى أستطيع أن أشفيك من علتك فأظهرك من نفسى على جميع أثنائها وأحنائها، ويومئذ تنصرف عنى وتزهد فىّ، ومن يدرى! لعلك تلحقنى بأولئك النساء اللاتى أرسلتهن إلى العالم الآخر. ولكنى أنا لم أزهد فى حبك ولم أزهد فى الحياة بعد، وإذًا فلن أمكنك من الانصراف عنى والزهد فىّ، وإذًا فستسعى دائمًا إلى أن تعرفنى، وسيخفى

دائمًا عليك منى بعض الشىء، وستحبنى ما دمت تجهلنى، وستجد من هذه الحرب بين الحب والمعرفة قوة تحبب إليك الحياة وترغبك فيها. ولكن أين نحن الآن من النهار؟ وأين نحن الآن من شئون الملك؟ وأين نحن الآن من شئون أنفسنا؟ ألا تحس ألم الجوع؟ إنى لا أكاد أستقر من شدة ما أجد من هذا الألم، ولكن انتظر قليلًا». ثم تضرب إحدى يديها بالأخرى مرة ومرة وإذا الخدم يسعون وهم يحملون إلى الملك والملكة ما يحتاجان إليه من طعام وشراب، ويهمّ أن يتكلم ولكنها تسبقه إلى الكلام، فتقول ضاحكة: «أنت أسيرى منذ الآن يا مولاى، لن أفارقك حتى تفارقك علتك. إن غرفتك حرام عليك، ستنفق الليل فى غرفتى، سأسلمك إلى النوم وديعة محفوظة، وسأستردك من النوم كما يسترد المودع وديعته، وسألزمك حتى تضرع إلى فى أن أريحك من نفسى ساعة أو بعض ساعة». قالت ذلك وانحنت إليه فقبّلت بين عينيه والخدم ينظرون وينظمون المائدة. ولكن شهريار لم يقل شيئًا، ولو كشف لنا عن نفسه لما عرفنا أكان سعيدًا أم كان شقيا. فقد كان أحب شىء إليه أن يكون أسير شهرزاد، ولكنه كان

يشــفق أن تسلمه شهرزاد إلى النوم وأن تأمر النوم فيحتفظ به حتى يرده إليها وتفوته بذلك أحلام شهرزاد. على أنه لم يكد يعــود إلى طبيعته المألوفة التــى رده إليها إقدامه على الطعام والشراب والحديث حتى نسى الليل وسهوده وهجوده ووطّن نفسه مسرورًا محبورًا على أن ساعة مع شهرزاد خير من كل أيامه تلك التى كان يحياها منفردًا أو كالمنفرد، لا يلقى زوجه إلا بمقــدار وعلى ميعاد، حســب ما تقتضيــه ظروف الحياة للملوك الذين أثقلت قصورهم التقاليد التى تراكم بعضها فوق بعــض على ممر الدهور واختلاف الأجيــال. وما يمنعه وقد فتحت له شــهرزاد هذا الباب الذى لم يكــن ينتظر أن يفتح له، ما يمنعــه أن يتمارض ويتكلف العلــة ويلقى إلى وزيره مقاليد الدولة يدبرها كما يشاء أو كما يستطيع، حتى يبل هو من مرضه أو من تمارضه!! ما يمنعه أن يتكلف العلة ليخلص لشــهرزاد ما دامت هى تريــد أن تخلص له!! ولكن ما الذى حملها علــى أن تلقاه بهذا العطف الــذى لم يتعوّده، وبهذا الحنــان الذى لم يألفه! أتراهــا صادقة فيما تظهر من ذلك أم تراها متكلفة؟! وما الذى يدعوها إلى هذا التكلف، وهى تعلم

حق العلم أنها مستأثرة بقلب الملك وعقله تأمرهما بما تشاء دون أن تخشى منهما امتناعًا عليها، وتنهاهما عما تشاء دون أن تخشى منهما خلافًا، وهى أكرم على نفسها وأرفع فى نفسها من أن تتملق رجلا أو تتلطف له مهما يكن؟! هى إذًا لا تتكلف هذه العواطف، ولكنها مع ذلك لم تألف هذه العواطف ولم يألفها منها شهريار! وإنما هى غامضة دائمًا مدلة دائمًا، لا تدنيه إلا لتقصيه، ولا تلطف به إلا لتعنف عليه. أفتراها قد وصلت إلى دخيلة نفسه ووقفت على جلية أمره وعرفت أنه مريض حقا، وأشفقت عليه من هذا المرض؛ فهى تريد صادقة أن تبره وترفق به وتطبّ لعلته حتى يبرأ؟ كل ذلك ممكن وغير ذلك ممكن سواء منه ما عرفه شهريار وما لم يعرفه. فقد استقر فى نفسه أن صاحبته بحر لا يسبر غوره، وليل لا تنجلى ظلمه، ولغز لا تحل مشكلاته. وهو على ذلك ناعم بعشرتها سعيد بما تحمله عليه من الرضا والسخط، ومن اللذة والألم، ومن النعيم والبؤس، ومن الظفر والحرمان. فلينتهز إذًا هذه الفرصة التى هيئت له، ولينعم بهذه السعادة التى تعرض عليه، وليعش فى ظل شهرزاد

ناعمًا بائسًا وسعيدًا شقيًّا كما تعيش رعيته فى ظله هو ناعمة بائسة وسعيدة شقية. وقد كان يظن أنه الملك، وأن كلمته هى العليا، وأن أمره هو المطاع الذى لا معقب له، فقد ظهر له الآن أن هناك ملكًا أقوى منه وأعظم سلطانًا، وأنه هو الرعية لهذا الملك، وهل شهرزاد آخر الأمر إلا قوة متسلطة عليه تصرفه كما تريد وتدبر أمره كما تهوى دون أن يستطيع امتناعًا عليها أو إباء؟!

وكذلك أنفق شهريار نهاره الأول كالطفل خاضعًا لسلطان أمه الحنون، تأمره فيأتمر وتنهاه فينتهى، واجدًا فى ذلك اللذة كل اللذة والنعيم كل النعيم. وكانت شهرزاد رفيقة به إلى أقصى غايات الرفق، محبة له إلى أبعد آماد الحب، تصرفه فى فنون الهزل والجد، وتنقله فى أطوار المرح والهدوء، حتى إذاضرب الليل سرادقه المظلم الكثيف على الكون أوت به إلى غرفة من غرفاتها، فتحدثت إليه فنونًا من الحديث، وأسمعته ألوانًا من الغناء وضروبًا من الموسيقى. ثم أقبلت إليه آخر الأمر باسمة هادئة وقالت له فى صوت متكسر بعض التكسر فاتر بعض الفتور: «قد آن

للطفل أن يستريح إلى النوم فيما أظن، هلم إلى مضجعك يا مولاى». ثم أخذت بيده ومضت وهو يتبعها مستسلمًا محبًّا لهذا الاستسلام منكرًا له فى قرارة نفسه، سائلًا عن إرادته أين ندّت، وعن قوته أين شردت، راجيًا ألا تعود إليه هذه الإرادة وألا ترد إليه هذه القوة. فمن الخير أن ينعم الإنسان «بإجازة» يستريح فيها من إرادته وقوته ومن ملكات نفسه كلها. وقد أذن لشهرزاد بهذه الإجازة فهو ينعم بها غارقًا فى لذاتها إلى أذنيه. وها هو ذا قد أوى إلى سريره، وها هى هذه شهرزاد تسوّى له الوسائد حتى تطمئن إلى أنه قد استراح فى مضجعه. ثم تنصرف عنه لنفسها شيئًا، ثم تعود إلى الغرفة فتمضى فيها ذاهبة آئبة مختلسة نظرة بين حين وحين إلى طفلها هذا الكبير. حتى إذا رأته قد اطمأن إلى النوم ومضى معه فى طرقه المجهولة، أوت هى إلى سريرها فغاصت فيه غوصًا ودعت النوم، فما أسرع ما استجاب لها وشمل الغرفة هدوء متصل.

أطال هذا الهدوء أم قصر؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك؛ فقد كان الليل قد قطع فى طريقه شوطًا بعيدًا قبل أن ينام العاشقان،

ولكن شـهريار يتنبه من نومه هادئًا مطمئنًّا لا يقول شـيئًا ولا يأتى حركة، وإنما يمد سمعه نحو سـرير شـهرزاد فقد ألمّ به طائفه ذاك فمسّ كتفه مسًّـا رفيقًا وألقى فى رُوعه هذه الجملة: «أفق ولا تحدث حسًّـا، فقد آن أن تسـتمع لحديث شهرزاد».

٤

ولا يطول انتظار الملك، لكنه يسمع قائلًا يقول: «فلما كانت الليلة الحادية عشرة بعد الألف قالت شهرزاد...»، ثم ينقطع هذا الصوت، ويبلغ أذن الملك صوت شهرزاد رقيقًا رشيقًا وهى تقـول: «بلغنى أيها الملك السـعيد أن وزير الملـك طهمان بن زهمان اضطر إلى إخفاء ما فى نفسـه مـن الخوف على المدينة وأهلها مما أزمعت فاتنة، وخرج وهو يقول للملك: «إنه مبلغ تحدِّى الأميرة لملوك الجن جميعًا».

فلمـا خلا الملـك إلى ابنته قال لها فى صوت باسـم يملؤه الحنان: «فسـتأذنين لى فى أن أحدثك بما أبيت أن تسـمعيه مـن الوزراء ورجال القصر؛ فإنهم يا ابنتى قد أشـفقوا على

أنفسهم ومدينتهم وأهل المملكة جميعًا من هول هذه الحرب التى تتعجلينهـا وهم يعلمون أن أهـوال الحرب لن تبلغك ولـن تبلغنى، فإن لـك ولى من ملكنا عصمـة ووزرا. ولكنها سـتبلغهم هم ستعرِّض شـبابهم للموت، وستعرض أطفالهم لليتم، وسـتعرض شـيوخهم للبـؤس والثكل، وسـتعرض نساءهم للتأيم والشقاء، وسـتعرّض أموالهم للفناء، ستصب عليهـم البؤس صبا فـى ألوانه المختلفة التـى لم نذقها ولا ينتظر أن نذوقها، ولكننا نعلم ما نعلم من أمرها بما نقرأ فى الكتب وما نسـمع فى الأحاديث، وقلما نراها رأى العين أو نحسها إحساسًا مباشرًا. فنحن لا نتنزل إلى مخالطة الرعية لنشـهدها حين تبتهـج وحين تبتئس وحين يمسـها جناح من لين أو يصيبها عارض من شـدة. فلهم العذر يا ابنتى إن ارتاعوا أو التاعوا أو أشفقوا من هذا المكروه الذى يوشك أن يلم بهم فلا يبقى عليهم. وفى قلوبنا نحن الرجال قسـوة، وفى أكبادنا غلظ، وفى طبائعنا شـدة وعنف. ولكن قلوب النسـاء رحيمـة، وأكبادهن رقيقة، وطباعهن لينة صافية، فإذا دبر ملـوك الجن ما دبروا وقدّروا أن ينصبوا لنا الحرب فقد كنت

أنا خليقًا أن ألقاهم بهذه الشدة، وأن أنصب لهم حربًا كالتى يريدون أن ينصبوها لى. وأن أكيد لهم كما يكيدون لى، وكنت أنــت خليقة يا ابنتى أن تشــفقى من هذا الهول، وأن ترفقى بالرعية، وأن تقترحى علىَّ وعلى الوزراء من وســائل السلم مــا يرد عن الناس هذا المكروه، ولكنهــم يا ابنتى قد رأونى صامتًا لا آمر ولا أنهى، ورأوك مقدمة على هذا الأمر العظيم لا تحسبين حسابًا لنعيمهم الضائع وبؤسهم الواقع، فأنكروا فى نفوســهم وهمّوا أن يجهروا بما أضمرت قلوبهم. ولكنهم خافوك وخافونى، فأذعنــوا للأمر على كره منهم ولم يقولوا شــيئًا، أو هــم خافوك أنت ولم يخافونى أنــا! فقد أصبحت شــيئًا لا يخاف، وإنما أنا هامة اليوم أو غد كما يقول حمقى الناس مــن حولنا، وجذوة اليوم أو غد كمــا ينبغى أن نقول نحن فى لغتنا. ومهما يكن من شىء فإنهم خافوك يا ابنتى؛ لأن أمرهم إليك غدًا أو بعد غد؛ ولم يخافونى أنا لأنى متصل بالماضى الذى ليس إلى رجوعه من سبيل».

وهمت فاتنة أن ترد علــى أبيها، ولكنه مضى فى حديثه مترفقًــا فقــال: «ويظهر يا ابنتى أن الشــيخوخة تدنينا من العقل أو تدنينا من الجنون أو تدنينا منهما جميعًا. ولســت

أدرى أحـــزم ما يضطرب فى نفســى مــن الخواطر أم حمق، ولكنى ملقيه إليك علــى علاته، فخذيه منى كما هو وافعلى به بعد ذلك ما تريدين؛ فقد وصلت إلى السن التى لا أستطيع أو لا أريــد أن أبرم فيها أمرًا. فيــم يدبر ملوك الجن لنا هذا الكيد؟ وفيم ينصبون لنا هذه الحرب؟ وفيم تلقين كيدهم بمثله وتهيئين لحربهم حربًا مثلها؟ فى شىء لا يعنى رعاياهم ولا رعيتنــا من قريــب أو بعيد. هم يحبونك ويتنافســون فيك، وأنت تزدريهم وتترفعين عنهم وتمتنعين عليهم. وماذا يعنى رعايانا البائسين مما نجد من الحب والبغض، وما نحس من العشــق والهيام! إنهم لا ينعمون حين ننعم، ولا يبتئســون حين نبتئس؛ وإنما تجرى حظوظهم من النعيم والبؤس على قوانين لا صلة بينها وبين ما نستمتع به من سعادة، أو نرزح تحته من شــقاء. ومن القسوة يا ابنتى أن ننعم وهم بائسون، وأن نقوى وهم ضعفاء، ونُثرى وهم فقراء، نستمد من بؤسهم نعيمًا، ومــن ضعفهم قوة، ومن فقرهم ثــراء فكيف نضحى بهم فى سبيل أهوائنا وشــهواتنا وعواطف قلوبنا، ونزعات نفوســنا!. لو رفقت بهم يا ابنتى لجَنَبْتهم هذه الحرب التى

يدبرها عشاقك، وهذه الحرب التى تدبرينها أنت لهؤلاء العشاق، ولاخترت لنفسك من بين هؤلاء الملوك زوجًا تنعمين بعشرته وينعم بعشرتك. ومن يدرى لعل رعيتكما أن تصيب أطرافًا من هذا النعيم. ولكنك يا ابنتى لا تجنُبينهم حربًا، وإنما تدفعينهم إليها دفعًا كما تدفع الوقود إلى النار المضطرمة التى لا تشبع مهما يقدم لها من الحطب. وأمرك فى ذلك كأمر عشاقك جميعًا، كلكم يتبع هواه الجامح، ويركب شهوته المندفعة، ويضحى فى سبيل نفسه بكل شىء وبكل حي. ليس هذا حقا، وليس هذا عدلا. وقد كنت أعجب آنفًا بما أوتيت من العلم وما بلغت من الحكمة يا ابنتى، ولكنى أجد الآن حزنا لاذعًا يؤذى شيخوختى المتهالكة؛ لأن ما أوتيت من العلم وما بلغت من الحكمة لم يهيئ لك وسيلة تسعدين بها غيرك كما هيأ لك هذه الوسائل التى تُرضين بها هواك، وتحققين بها مآربك، وتظهرين بها على عدوك. وقد يكون كلامى هذا ثقيلًا عليك يا ابنتى؛ فإنى جربت الملك من قبلك، وعرفت أن الحق لا يبلغ من المرارة فى نفس أحد ما يبلغه فى نفوس الملوك، وعرفت أن النصح لا يثقل على أحد

كما يثقل عليهم. فلكل امرئ من نفسه ما تعوّد، كما سيقول شاعر من الناس فيما يقبل من الزمان. ونحن قد تعودنا أن تستقيم لنا الأمور، وأن تجرى لنا على ما نريد لا على ما يريد غيرنا، ونحن قد ألفنا أن نأمر ولا نأتمر، وأن ننهى ولا ننتهى، وأن نطاع ولا نطيع؛ فأصبح الشذوذ لنا طبيعة، والجموح لنا فطرة، والاستبداد بالحياة والأحياء لنا قانونًا. فإذا تحدث إلينا متحدث بالحق، أو دعانا داع إلى العدل، أو رغبّنا مرغبّ فى أن ننصف من أنفسنا كما ننتصف لها، ضقنا بذلك أشد الضيق، وكرهناه أعظم الكره، ونكّلنا بمن يدعونا إليه أو يرغبنا فيه تنكيلا، ولو أن وزيرنا قال لك بعض ما قلته الآن لأرسلته إلى الموت، أو لألقيته فى غيابات السجن؛ وهو من أجل ذلك لم يقل لك شيئًا، ولكنه قدر فى نفسه كل ما قلت لك.

ففكّرى يا ابنتى فى رعيتك وارفقى بها، بل فكّرى فى رعايا عشاقك وارفقى بهم؛ فإن نعيم ساعة أو نعيم عام أو نعيم الدهر كله إن ظفرت به لا يعدل نفسًا من هذه النفوس الكثيرة التى ستزهق ولا قطرة من هذه الدماء الغزيرة التى

ستراق. أتسمعين لى يا ابنتى أم أنت ذاهلة عنى مشغولة بتدبير أمرك هذا الذى تُقدمين عليه!».

قالت فاتنة وقد غشى وجهها شىء من كآبة لم يلبث أن جلته ابتسامة حلوة: «لقد استمعت لك يا أبت فأحسنت الاستماع. وما ينبغى أن أذهل عما تقول أو ما تعمل، ومنك تعلمت أدب الحديث وأدب الاستماع وآداب الملك كلها، وما قلت لى يا أبت إلا الحق وما دعوتنى إلا إلى الرشد. ولكن أمن الحق أن أكره على ما لا أريد؟!. إن هؤلاء الذين يخطبوننى إليك يعلمون حق العلم أنى لا أحب منهم أحدًا، ولا أبغض منهم أحدًا، ولن أتزوج منهم أحدًا. أفإن نصبوا لى الحرب ليكرهونى على ما لا أحب ويحملونى على ما لا أرضى، فلقيت كيدهم بكيد مثله، ودفعتهم عن نفسى بما تعودنا أن ندفع به عن أنفسنا، أكون ظالمة آثمة؟! فالتمس لى إذًا يا أبت فرجًا من هذا الحرج، ومخرجًا من هذا المأزق. وهل يقصر إثم الحرب على هذه الحرب التى نحن مقدمون عليها؟! ومتى رأيت الملوك يقدمون على حرب لا تدفعهم إليها شهواتهم الجامحة وعواطفهم الجائرة؟! ومتى رأيت الشعوب تُجنَب هذه الأهوال وتعصم من الحرب لغير مصالحها المؤكدة

ومنافعها المحققة؟! إن أثرة الملوك والسادة والزعماء، هى التى تثير الحرب دائمًا وهى التى ترهق الشعوب دائمًا. وأكاد أعتقد أن الشعوب إنما خلقت ليرهقها الملوك والزعماء بالحرب والسلم جميعًا. فليست الشعوب أعظم حظًا من السعادة أثناء السلم منها أثناء الحرب. إنا ندفعها إلى الموت حين نحارب، وندفعها إلى البؤس والشقاء حين نسالم، فهى ضحية لنا على كل حال».

قال الملك: «فقد كنت أرجو أن يهيئ لك علمك وحكمتك ابتكار لون من ألوان الحياة لا تشقى فيه الشعوب بسعادة الملوك والزعماء. ولكنى أراك تسيرين فى الطريق التى سار فيها الملوك من قبلك.. وقد كنت أنتظر غير هذا؛ ولكن الظنون تكذب والآمال تخيب».

قالت فاتنة: «صدقت يا أبت! إن الظنون تكذب وإن الآمال تخيب. وما أكثر ما كذبت ظنونى وخابت آمالى! وإنك لترى وجهى مشرقًا وثغرى باسمًا وعينى تفيضان بهجة وبشرًا، ولو اطلعت على ضميرى وقرأت دخيلة نفسى لرأيت حزنًا أى حزن، وشقاء، وشعورًا هو أقرب إلى اليأس والقنوط منه

إلى أى شـــىء آخر. وإنى لأحدثـــك بهذا كله كارهة وما كنت أريد أن أظهرك منه على شـــىء؛ فأنا شديدة الحرص على ألا ترى منى ولا ترى عندى إلا ما تحب. ولكنك قد باديتنى. بما تجد محسـنًا بذلك إلى، فلا بد من أن أباديك بما أجد مسيئة بذلك إليك. وليست هذه أول مرة آذيت فيها نفسك الكريمة، وشـــققت فيها عليك بما يعتادنى من هـــمّ ثقيل. إنك يا أبت مستيئس منى لأنى أسلك الطريق التى سلكها الملوك والأمراء مـــن قبل، فأحيا لنفســـى لا لغيرى، ولا أرفـــق بهذه الرعية التـــى لم يرفق بها أحد قط. وهذا نفســـه هو مصدر شـــقائى ويأســـى. فأنبئنى يا أبت ما بال هذه الرعية لا ترفق بنفسها ولا تعنـــى بأمرها ولا تفكـــر فى مصالحهـــا، وإنما ندعوها فتجيب، ونأمرها فتطيع، ونوجهها إلى حيث تشـــاء فتتجه إلى حيث نشـــاء، لا يخطر لها أن تأبى إذا بلغها الدعاء، ولا أن تعصـــى إذا صـــدر إليها الأمر، ولا أن تمتنـــع إذا وُجهت إلى حيث لا تحب؟! أفنكون أرفق بها من نفســـها، وأحرص على مصالحهـــا، وكرامتها مما تحرص هـــى على مصالحها وكرامتها؟!

ومــع ذلك فأين يكون الفرق بينها وبيننا؟! أليس الرجال منها والنساء والشــباب منها والشيوخ يشعرون كما نشعر، ويحســون كما نحس، ويجدون اللــذة والألم، كما نجد نحن اللــذة والألم، ويحبــون الخير ويكرهون الشــر، كما نحب نحن الخير ونكره الشــر؟! فما طاعتها لنا فى غير روية ولا تفكــير، بل فى غير فهم لما تؤمر به وتقدير لما تدعى إليه؟! أترى أنا خلقنا من عنصرغير عنصرها، أو أنها خلقت من نار غير التى خلقنا منها؟! لقد كنت أفهم أن نتسلط على الناس، فلا يستطيعون لنا مقاومة ولا يحاولون علينا امتناعًا؛ فنحن من نار وهم من طين، فأما أن نتســلط على الجن الذين خلقوا من عنصرنــا فلا نجد منهــم إلا الإذعان والاستســلام، كما يتســلط ملوك الناس على الناس فلا يجدون منهم إلا الإذعان والاستســلام، فهذا هو الذى يحيِّر عقلــى ويذهل لبىّ ويُكلُّ خاطرى ويدفعنى إلى اليأس ويحملنى على أن أســلك الطريق التى سلكها الملوك من قبلى».

قال الملــك: «فإن قلبك فى حاجــة إلى الرحمة يا ابنتى، وعقلك فى حاجة إلى أن يكون أقوم تقديرًا للأمور. لقد نشأت

على السلطان وتعودت حقوقه وواجباته. هيُئت لذلك منذ درجت، وهيِّئ له من قبلك آباؤك وأمهاتك. ونشأت الرعية علي عكس ما نشأت أنت عليه، وعودت غير ما عُودِّت، وهيُئِّت لغير ما هُيّئت له منذ الزمان القديم الذى لا نعرف له أولًا. وكان هذا التفريق بين السيد والمسود خطأ. أفينبغى أن يستمر الخطأ؟! أليس من الممكن وقد ارتقت عقولنا ونفذت أبصارنا إلى كثير من حقائق الأشياء وعلمنا أن هذه الفروق بيننا وبين الرعية مصطنعة لم تأت من الطبيعة، وإنما جاءت من الحضارة، أفليس من الممكن أن نصلح أغلاطنا ونقوم اعوجاجنا؟! بل أليس من الممكن أن نصلح أغلاط الطبيعة إن كانت هذه الفروق قد جاءت من الطبيعة؟! بلى! هذا ممكن، هذا واجب يا ابنتى، ولكن لابد للنهوض بهذا الواجب من أن نُشعر قلوبنا الرحمة والإحسان، ومن أن نؤمن بأن حياة الملوك ليست حقوقًا كلها ولكنها واجبات أيضًا، وربما كان نصيب الواجب فيها أعظم من نصيب الحق. ما الذى يمنعنا أن نشعر الرعية بنفسها ونبصرها بحقها كما بصرناها بواجبها، ونهيئها لا أقول لتستأثر من دوننا بالأمر، ولكن

لتشاركنا فى الأمر وتعيننا على احتمال أعبائه الثقال؟!».

قالت فاتنة: «ومن أجل ذلك أنشأت المدارس يا أبت وأذعت العلم وقد كان سرا مكتومًا، ومن أجل ذلك رفعت إليك بعض النابهين من الدهماء فكلفتهم ما كلفتهم من أعمال الدولة، وقد كانت أعمال الدولة مقصورة على أفراد أسرتنا. ومن أجل ذلك عرّضت نفسك لسخط الأمراء وكيد الشيوخ من رؤساء العشائر وقد وصلت إلى كثير مما كنت تريد، فلولا هذه السيرة التى سرتها فى الرعية لما ثار الاعتراض فى نفوس الوزراء ورجال الحاشية حين أمرتهم أمرى فأذعنوا له كارهين. هم الآن يضمرون الاعتراض وقد كانوا لا يشعرون به من قبل. أفهذا هو الذى أردت إليه؟».

قال الملك: «هو هذا يا ابنتى».

قالت فاتنة، وقد وثبت إلى أبيها فضمته فى رشاقة وقبلته فى عنف: «وهو ما أريد إليه أيضًا. ولتطب نفسك ولتقر عينك، فلن يصيب الرعية من هذه الحرب التى أثيرها سوء».

قال الملك وهو يتضاحك: «ماذا تقولين يا ابنتى؟! حرب لا يصيب الرعية منها سوء؟! أحرب هى أم لعب؟!» قالت:

«بل هى الحـرب كل الحرب». قال: «أوضحـى يا ابنتى عما تريدين؛ فإنى لا أفهم عنك شـيئًا». قالت: «ذلك سـرى الذى سـتفهمه حين أزيل عنه السـتار». وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وهمّ شـهريار حين انقطع حديث النائمـة أن يفكر فيما سمـع، ولكن النوم لم يمهله كمـا كان يمهله من قبل، وإنمّا سعى إليه حثيثـًا. وسمع الملك صوت طائفه ذاك يقول:

«كلا، لا تفكـير الآن ولا يقظة. لقد أودعتك شـهرزاد إلى النـوم! وردك النوم إليهـا حينًا، فسـتعود إلى النوم حتى تستردك منه شهرزاد كما تقدّم إليك وعدها أمس».

وأكبر الظن أن شـهريار لم يسـمع هذه الكلمات الأخيرة وإنمـا أغرق فى نـوم هـادئ لا تروعه الأحـلام ولا يقطعه الأرق. ويفتح عينيه بعـد وقت طويل أو قصير فيرى الغرفة وقد أذن لضوء الشـمس المشـرقة أن يغمرها فظهرت جميلة رائعة متألقة ورأى شهرزاد قائمة من سريره غير بعيد وهى تمـد إليه بصرها حلوًا مداعبًا كأنها تدعوه إلى أن يسـتيقظ، وهـى مع ذلك صامتة لا تقول شـيئًا، ولكـن وجهها يزدان

بابتسامة حلوة تبعث الأمل وتدعو إلى النشاط. فلما رآها الملك ابتسم لها، وهمّ أن يسألها كيف قضت الليل، ولكنها ابتدرته بالسؤال فقالت: «كيف يجد مولاى نفسه؟». قال: «على خير ما أحب أن أكون ما دمت أنعم بقربك وأسعد منك بهذه النظرات الحلوة وبهذه النغمات الساحرة». قالت: «لقد استيقظ مولاى غَزِلا، وأحسب أنه قد قضى ليلة هادئة». قال: «كل الهدوء». قالت: «ولكنى أسأل مولاى أيجد نفسه من القوة والنشاط والصحة خيرًا مما كان أمس؟». فتردد الملك قبل أن يجيب، ولكنها لم تُخَل بينه وبين الجواب وإنما قالت: «سأجيب عنك يا مولاى، وسأعفيك من هذه الحيرة، وسأريحك من كذب لا تحبه ومن صدق لا تجد الشجاعة عليه. فأنت بخير ما فى ذلك شك، وأنت اليوم خير منك أمس ما فى ذلك شك أيضا. ولكنك تخشى إن أنبأتنى بذلك أن أخلّى بينك وبين العمل وتكاليف الملك، وإن أنبأتنى بغير ذلك لتستبقى هذه الراحة التى أخلدت إليها أن تقول غير الحق. وأنت لا تريد أن تكذب لأنك لا

تحب الكذب أو لأنك تشـفق ألا أومن لك. أليس هذا كله حقًّا يا مولاى؟!».

قال وهو يضحك، وقد أخذ يسـتوى جالسًـا فى سريره: «هو كل الحق يا أحب الناس إلى».

قالـت فى صوت العاتبة وقد مالـت إليه تقبله وتلاطفه: «إنك لأشبه شىء بالطفل الذى يداور أمه أو معلمه الحازم. لا بأس عليك، فلـن يُخلَّى بينك وبين العمل، ولن تحرم جوار شـهرزاد. أليس هذا كل ما تريد؟». ثم جلسـت إلى جانبه، وأدارت ذراعها حول عنقه، وأخذت تنظر إليه نظرات ملحة كادت تـرده من الذهول إلى مثل ما كان فيه من أمسـه. لولا أنهـا نهضت ثم أنهضته وانصرفت به إلى حيث يستنشـقان هواء الصباح مشرفين على جنة القصر من بعض الأطناف.

وقد أنفق الملك يومًا من أسـعد أيامه، لم يعرف فيه ألمًا ولا حزنًا، ولم يحس فيه حسـرة على ما مضى ولا اسـتطلاعًا لما هو مقبل، وإنما كان يعيش للساعات التى كان فيها مستمتعًا بهذه اللذات الهادئة المختلفة التى كانت تقدمها إليه شهرزاد فى غـير تكلف وفى غير جهد ظاهر. فأمـا وجه النهار فقد

أنفقاه متروّضين فى حدائق القصر، يقفان حينًا ويسعيان حينًا آخر، ويجلسان حين يحتاجان إلى الجلوس أو حين يعجبهما هذا الموضع أو ذاك من الحديقة فيحبان أن يطيلا البقاء فيه. أحاديثهما أثناء هذه الرياضة هادئة كنفسيهما لا حوار فيها ولا جدال ولا تعمق فيها لشىء، وإنما هى أحاديث تجرى على رسلها كما كانت حياتهما تجرى على رسلها، وكما كان النسيم من حولهما يجرى على رسله رخاء، وكما كانت الغصون تضطرب على رسلها فى الهواء، وكما كانت الطير تتغنى على رسلها كذلك، وكما كانت الأزهار تتنفس على رسلها عما تنشر فى الجو من عبير.

وكان شهريار قد انغمس فى هذه الحياة الحلوة الهادئة، فنسى نفسه ونسى ملكه ونسى خواطره التى كانت تعتاده أثناء النهار وخواطره التى كانت تلم به أثناء الليل، بل نسى شهرزاد نفسها، ولم يقدر أنها كانت معه تسليه وتلهيه وتأسو جراح نفسه، وأن هذا النعيم الذى كان يستمتع به إنما هو من صنعها ليس غير ولكن شهرزاد كانت بارعة فى العناية به والتلطف له حتى أنسته أنه موضوع العناية

والرعاية. سحرته عن نفسه وعما حوله بسيرتها، كما كانت تسحره عن نفسه وعما حوله بقصصها. ويظهر أنه تنبه لذلك فجأة فقطع ما كان يمضى فيه من حديث عادى، ورفع رأسه كالواجم ونظر إليها محدقًا فيها، ثم قال لها بصوته الهادئ الذى كأنه يأتى من بعيد: «ألا تنبئيننى آخر الأمر من أنت وماذا تريدين؟!».

قالت وهى تضحك ضحكًا ينم عن بعض القلق: «أيكون الملك قد عاد إلى طوره الأول من الاضطراب والذهول؟ أو يعود إلى هذا السؤال الذى لا يغنى شيئًا ولا يدل على شىء؟! أنا من ترى ومن تسمع، ومن تحس قربها منك، وحبها لك، وفناءها فيك، وحرصها على أن تملأ نفسك غبطة، وضميرك بهجة، وقلبك أمنًا وسرورًا. إنك لا تسأل هذه الشجرة ولا هذه الزهرة ما هى ولا ماذا تريد، وإنما تنظر إليها وترضى عنها وتعجب بها، وتحمد الله على ما أنعم عليك من الاستمتاع بها. فانظر إلىّ كما تنظر إلى هذه الشجرة أو إلى هذه الزهرة، وخذ منى ما أعطيك وأعطنى ما أسألك إن استطعت، ولا تكلف نفسك أكثر من هذا. عش بحسك وقلبك

وضميرك، وتخفف من عقلك بين حين وحين. عش عيشة الإنسان الحى لا عيشة العالم الباحث؛ فإن للعلم والبحث وقتًا مقسومًا من حياة الناس، وما ينبغى أن تكون حياتهم كلها علمًا وبحثًا وتعليلًا وتحليلًا».

قال وقد أدار ذراعه حول خصرها اللطيف الرخص: «فإنى لا أسألك الآن سؤال الباحث المستقصى، وإنما أسألك سؤال المحب المدنف فقد عرفتك».

قالت: «قد عرفتني! واحرباه! ستزهد فىّ إذًا قبل أن يتقدم النهار»، ثم أغرقت فى ضحك غامض طويل.

قال: «قد عرفتك ولن أزهد فيك! لأن معرفتى إياك تدفعنى على الاستزادة منك؛ فأنت قصص دائم لأنك سحر دائم، أخص ما تمتازين به أنك تشغلينني عن نفسى وعن ملكى وعما حولى وعمن حولى، بل تشغلينني عنك أيضًا».

قالت وقد أغرقت فى الضحك: «إن كنت أشغلك حتى عن نفسى فما أدرى كيف تفكر فىّ أو تسأل عنى. ألا يمكن ألا أكون شيئًا ما دمت أشغلك عن كل شىء؟! ألا يمكن أن أكون شيئًا غيرك فأنت تُشغل بنفسك عن كل شىء وعن كل إنسان؟!

ولكنك أنبأتنى بأنى أشـغلك عن نفسـك. صدِّقنى إنى لا أفهم عنك، وما أرى إلا أنك تمعن فى فلسفة أشد منى غموضًا وأعظم منى اسـتعصاء على الفهم. دع الفلسـفة ودع التفكير، وتعال ننعم بهذه السـاعات الحلوة التى تتاح لنا والتى نختلسها أو أختلسها أنا لك ولى من تكاليف الحياة. إنى أشغلك عن نفسك وأشـغلك عن نفسى وأشغلك عن كل شـىء. ولكن ما رأيك فى أن شـيئًا لم يشـغلنى عن أن النهار يتقدم، وعن أننا نوشك أن نجد لذع الجوع، وعن أن من الحق علينا أن نتهيأ للغداء؛ ذلك أحـرى أن يتيح لنا الإغراق فى الفلسـفة والإمعان فى البحث عما وراء الطبيعة. هلم يا مولاى، فسترى أن هذا النعيم الحلو الذى اسـتمتعنا به الآن ليس شـيئًا بالقياس إلى ما هيأت لك شهرزاد هذه التى لا تعرف من هى ولا تدرى ماذا تريد».

وكانت شـهرزاد قد هيأت للملـك نعيمًا لم يكن يقدر أنه سيتاح له فى يوم من الأيام، منذ حمرة الدماء تلك التى كانت تصبغ فى نفسـه أعقاب الليـل ووجه النهار من كل يوم. فقد كان منذ تلك الأيام السود والليالى البيض قد ألف الحزن حتى لا يفلت منه إلا الحين بعد الحين، حين كانت شهرزاد تقص

عليه بعض أحاديثها أو تمتعه ببعض ما كانت تهدى إليه من سعادة حينًا بعد حين. فأما نعمة البال ورخاء العيش وراحة الضمير وهدوء النفس المتصل، فقد كانت أشياء حُرِّمت على شهريار وقطعت بينه وبينها الأسباب، فلما تقدم النهار وكاد أن ينتهى أقبلت شهرزاد بالملك على غرفة من غرفاتها فى القصر وهى تقول له عابثة به:

«ستعلم يا مولاى أنك لا تعرف من قصرك هذا إلا أقل ما فيه. وإنى لأرجو أن يدعوك ذلك إلى التفكير فيما تعرف من أمور الملك والرعية؛ فإنك إن جهلت أمر قصرك وحاشيتك أيسره كنت خليقًا أن تجهل من أمر ملكك ورعيتك أكثر مما تعلم، وكان الحكماء يقولون فى قديم الزمان وسالف العصروالأوان: إن من أراد أن ينهض بالواجب فى أى أمر من الأمور خليق به أن يعرف ما هو مقدم عليه ويتبين دقائق ما هو ناهض به وحقائق ما هو مدبِّر له، وألا يقدم إلا عن بصيرة، ولا يعمل إلا عن علم. وما أعرف يا مولاى غرورًا كغرور الذين ينهضون بتدبير أمور الناس وهم لا يعرفون من دخائل هؤلاء الناس شيئًا، أو هم لا يعرفون منها إلا أقلها

وأيسرها. إنهم يأمرون دون أن يقدروا مقدار احتمال الرعية لما يصدرون إليها من أمـر، وإنهم ينهون دون أن يعرفوا إلى أى حد تطيـق الرعية أو لا تطيق أن تنـأى عما تنهى عنه؛ لأنهم لا يعرفون نفوس الرعية ولا يبلون طاقتها ولا يقدرون حاجتهـا. ولكنى كنت أنهاك صباح اليوم عن الفلسـفة فيما بعد الطبيعة، وها أنا ذى أخوض بك مسـاء اليوم فى فلسفة الحكم وتدبير أمور الرعية كأنى حديثة عهد بقراءة أفلاطون وأرسطاطليس، فلنعد إلى ما كنا فيه يا مولاى، فإنى أريد أن أظهرك من قصرك على أشـياء لم تكن تعرفها ولم تكن تقدر أنك ستعرفها».

قال الملك وقد اشتدت حاجته إلى الاستطلاع: «فأظهرينى إذًا على ما تريدين أن تظهرينى عليه».

فقالت: «على رسـلك يا مـولاى، فما ينبغـى أن تجرى الأمـور على ما تحـب دائمًا، والعلم لا يبلـغ إلا بعد الجهد فى طلبه واحتمال العناء فى تحصيله. وإنى مدخلتك فى هذه الغرفة وتاركة لك البحث فـى أنحائها وأرجائها ما وجدت إلى البحث سـبيلاً. فإذا أعياك البحـث وأضناك الجهد فإنى

مشـترطة عليك بعض الشـروط لأريك ما لم تكن تتصور أنك سـتراه». ثم دفعت باب الغرفة فاندفع. ونظر الملك فلم ينكر فى الغرفة شـيئًا ولم ير فيها شـيئًا خليقًا بالالتفات، ولكنه مع ذلك جعل يجيل طرفه هنا وهناك، ويطيل النظر إلى بعض ما فى الغرفة من أداة وأثاث يريد أن يخيل إلى شـهرزاد أنه يبحث ويسـتقصى ويجد فى البحث والاستقصاء، ثم يعترف لهـا بعد ذلك بأنه لم يصل إلىشـىء، وإنمـا كان فى هذا كله مخادعًـا يريـد أن يتعجـل العلم بما أعدت له شـهرزاد من أسرارها المخبأة.

ولكن شـهرزاد ضحكت للملـك ضحكة فاترة لا تخلو من بعض الغيظ وقالت: «لسـت جادًّا يا مـولاى، وإنك لتعرف أنـى لا أخدع ولا يُغرر بى. وإنك لتعرف أنى لا أكره شـيئًا كمـا أكره الكسـل العقلى، وهـذا الطور الـذى يحصل عليه المترفون من أطوار الحياة حين ينتظرون أن يقدم إليهم الهين واليسـير مما يريـدون لا يتكلفون فيه جهـدًا ولا يحتملون فيـه عناء. فقد أنبأتك يا مولاى بأنى سـأقوم منك الآن مقام السـاحرة الماهرة التى ستظهرك على الأعاجيب؛ فلا تتعجل

هذه الأعاجيب، ولكـن خذها بحقها، وأبلغها من طريقها، واحتمل فى سـبيلها ما ينبغى أن تحتمـل من جهد. فإن لم تفعـل خرجنا من هذه الغرفة كمـا دخلناها، وانصرفت بك إلى غير ذلك من فنون اللهو والمتاع، فما أكثر ما فى القصرمن فنون اللهو والمتاع!».

قالـت ذلك ثـم ضربت إحـدى يديها بالأخـرى فأقبلت الوصائف مسـرعات يسـتبقن، كأن وجوههـن فلق الصبح، وكأنهن لخفتهن ورشـاقتهن لا يسـعين علـى الأرض وإنما يسـعين فى الهواء. فلما رآهن الملك مقبلات سىء بهن وضاق بهـن ذرعًا، وكاد بعض ذلـك يظهر فى وجهه لولا فضل من حياء فرضـه عليه أدب الملوك. فقـد كان فى جمالهن البارع وحسـنهن الرائع منظـر أنيق للعين وفتنـة خلابة للنفس، ولكـن محضرهن كان خليقًا أن يصرف الملك عن شـهرزاد أو يصرف عن الملك شـهرزاد، وكان أبغض شىء إلى الملك وأشقه على نفسـه أن ينصرف عن فتنته أو أن تنصرف عنه فتنته. فلما رأى الوصائف مقبلات لم يرتح لمقدمهن، ولكنه أمسـك نفسه على ما لا تحب وانتظر حائرًا أو كالحائر.

علـى أن انتظـاره لم يطـل؛ فقـد أقبلـت إليه رئيسـة الوصائف، فحيت وقالت فى صوت عذب: «أيأذن مولاى فى أن يبدأ الحفل؟».

قال الملك دهشًا متمالكًا مع ذلك: «أى حفل يا ابنتى ؟!».

قالت الوصيفة: «كنـت أظن أن مولاتنا قد آذنت الملك بما هيأت له».

قالت شـهرزاد فى شىء من الغضب: «فإنى لم أوذن الملك بشىء، فأمضين ما أمرتن به».

منذ هذه اللحظة نقل الملك من حياة إلى حياة، ومن عالم إلى عالم، لم يدر كيف كان ذلك، ولم يسـتطع فيما استقبل من أيامه أن يصور لنفسه أو لغيره كيف كان هذا الانتقال، وإنمـا ذكر إلى آخر أيامه أن صوت شـهرزاد لم يكد ينقطع بهـذه الجملة المغضبة حتى شـاع فى الغرفـة جو غريب قوامه أنغام موسـيقية عذبة نفاذة إلى أعماق الضمائر أخاذة بمجامع القلوب.

وقد حاول الملك أول الأمر أن يتعرف مصدر هذه الأنغام، فنظـر إلى الوصائف فـإذا هن قائمات فـى أماكنهن لا يأتين

حركة ولا يحدثن حسًّا، وليس فى أيديهن أداة موسيقية أو ما يشبه الأداة الموسيقية من قريب أو بعيد، ونظر إلى شهرزاد فإذا هى قائمة فى مكانها وعلى وجهها ابتسامتها الغامضة التى لا تقول شيئًا، والتى تقول كل شىء، والتى لا تخلو مع ذلك من سخرية تحفظ وتهيج. وأدار الملك بصره فى الغرفة ينظر فى كل مكان يريد أن يتبين لهذه الأنغام الساحرة مصدرًا فلا يرى شيئًا، وإنما يخيل إليه أن هذا الجو الموسيقى الذى أحاط به وأحاط بمن حوله أشبه شىء بالجو الذى يعيش فيه أثناء أوقاته العادية لا يعرف أين يبتدئ ولا أين ينتهى.

وكان أغرب ما فى هذا الجو الموسيقى الرائع اختلاف أنغامه وائتلافها فى وقت واحد، بل اختلاف الأصوات التى كانت تحمل هذه الأنغام وائتلافها. فكان هذا كله يلقى فى روع الملك أن هناك أدوات موسيقية مختلفة لا تحصى تصدر عنها أصوات وأنغام متباينة، ولكن قوة بارعة ساحرة قد أشرفت عليها ودبرت ما بينها من اختلاف حتى أحالته إلى ائتلاف.

ولم يمـض على إحسـاس الملك هذا الجو مـن حوله وقت طويل حتى أحس الملك أنه يغرق فى هذا الجو وينسىنفسـه قليلا قليلا، كأنما كانت الحياة الشاعرة تنساب من نفسه ومن جسمه شيئًا فشـيئًا، وإذا هو يفنى فى هذا الجو المحيط به فيصبـح صوتًا من أصواته أو نغمة من أنغامه، أو يصبح جزءًا شـائعًا فى كل صوت من هـذه الأصوات، وحظًا مفرقًا فى كل نغمة من هذه الأنغام، وقد نسـى كيف ابتدأ هذا الجو، ولم يسأل نفسه كيف ينتهى، وإنما استسلم لهذا البحر الموسيقى الذى غمره كما يستسـلم الغريق بعد أن يبذل آخر جهده فى المقاومـة، وبقى له مع ذلك شـعور واحد وهو أنه فى حضرة شـهرزاد وأنها تنظر إليه سـاخرة منه راثية له، وتبسم له ابتسامتها الغامضة كأنها تقول له: «ألم أنبئك أنى سأظهرك مـن الأمر علـى ما لم تكن تقـدر أنك سـتظهر عليه، وأنى سـأطلعك فى قصرك على ما لم تكن تظن أن قصرك يحتويه، وأنى سأسـحرك وأبهرك وأضطرك إلى هذا الاستسـلام الذى انتهيت إليه، ومع ذلك فقد كنت تخيل إلى نفسك أنك بدأت

تعرفنى! فذق الآن هـذه المعرفة، وتبين أنك لم تجهلنى قط كما تجهلنى الآن».

وينظر الملك إلى شـهرزاد واجمًا مبهوتًا، ويريد أن يتكلم فلا يطاوعه لسانه، ويريد أن يتقدم فلا تطاوعه قدماه؛ ولكن شـهرزاد تسـعى إليه هادئة كأنها الحياة تسعى إلى الجسم الهامـد، أو كأنها اليقظة تسـعى إلى النائم المغرق فى النوم، حتى إذا بلغته وضعت يدها على كتفه وقالت له فى صوت لم يسـتطع أن يفرق بينه وبين هذا الجو الموسيقى المحيط به، وإنما خيل إليه أن الغرفـة كلها تكلمه بهذا الصوت، قالت له: «لا تُرَعْ يا مولاى فليس عليك من بأس». ثم أخذت ذراعه ومضت به إلى مجلس من مجالس الغرفة فأجلسـته رفيقة به وجلسـت إلى جانبه عطوفًا عليـه، وقالت له فى صوتها هذا الجديـد الغريـب: «ألم أنبئ مولاى بأنى سـأذيقه من نعيم الحياة ألوانًا لم يذقها قط بل لم يذقها إنسان قبله قط! أفيرى مولاى أنى قد وفيت بالوعد أو بدأت بالوفاء!».

قال الملـك فى صوته الخافـت الذى كان كأنمـا يأتى من بعيد: «ألا تنبئيننى آخر الأمر من أنت وماذا تريدين؟!».

قالت متهالكة: «ألا يشغلك ما تسمع عن هذه الفكرة الملحة عليك المضنية لك؟! أليس خيرًا من ذلك أن تسأل عن هذه الموسيقى من أين تأتى وإلى أين تمضى؟!». قال: «فإنها تأتى منك وإليك تعود».

قالت: «فإذا لم يستطع سمعك أن يشغلك عنى وعما أريد، فستشغلك عيناك يا مولاى انظر!».

ونظر الملك من حوله فرأى عجبًا. لقد كان يعلم أن شهرزاد قد أقبلت به منذ حين على غرفة من غرفات القصر لها جدران تحدها وباب يغلق من دونها، ومن هذا الباب قد دخلت الوصائف آنفًا، ومن هذه الجدران قد نبعت أنغام الموسيقى كما ينساب الماء من العيون الجارية، لكنه الآن ينظر فلا يرى جدران الغرفة، وينظر فلا يرى للغرفة سقفًا ولا بابًا، وإنما يرى نفسه فى مكان متباعد الأرجاء مترامى الأطراف؛ قد زين أحسن زينة وأروعها وأعظمها تأنقًا ورشاقة؛ وقد تقدم هذا المكان فى بحيرة تحيط به من جهاته الثلاث واتصل بالقصر من جهته الرابعة، فكأنه يد قد مدها القصر فى هذه البحيرة لتأخذ منها شيئًا، وهذا المكان الواسع الرائع

يغمره الجو الموسيقى ذاك كما كان يغمر تلك الغرفة الضيقة الساذجة. ولكن شيئًا آخر قد ظهر فى هذا المكان، فهؤلاء أزواج من الفتيات والفتيان قد حسنت وجوههم واعتدلت قدودهم وغمرهم بشرعجيب وهم فرحون مرحون، يعبثون هنا ويجدوّن ويتراقصون فى هذه الناحية ويسمرون فى تلك الناحية، والملك مسحور مبهور يرى كل شىء ولا يحقق فى نفسه مما يرى شيئًا. وشهرزاد تقول له فى صوتها الهادئ الذى يقع فى نفسه كأنه قطعة من هذا الجو الفرح المرح: «لا بأس عليك يا مولاى! فإنك ترى هؤلاء الأزواج من الفتيان والفتيات وتسمع لأصواتهم الجادة والعابثة، ولكنهم لا يرونك ولا يسمعون لنا حين نتحدث، لأنهم لم يخلقوا بعد ولكنهم سيخلقون فى يوم من الأيام. ألم أحدثك بأنى ساحرة! فقد قصصت عليك العجب من أنباء الماضى، فأنا أقص عليك العجب من أنباء المستقبل، ولكنك يا مولاى لا تؤمن بالقصص وإنما تتلهى به كما يتلهى به عامة الناس. ولو قد آمنت بالقصص كما تؤمن به شهرزاد، لما رأيت فيما تشهد الآن سحرًا ولا فتنة، ولرأيت فى هذا العالم الذى

يبتدعه القصص ملجأ تأوى إليه ووزرًا تعتصم به إذا ضاقت نفسك بهذه الحياة الراكدة التى يحياها الناس حين ينامون وحين يستيقظون وحين يضطربون فى أمورهم اليومية. هلم يا مولاى، فقد بدأنا رحلة لم نتقدم فيها إلا قليلًا».

ثم تنهض متثاقلة، وتُنهض الملك متلطفة وتمضى به أمامها وقتًا لا يدرى الملك أطال أم قصر، ولكنها قد انتهت به إلى حافة البحيرة فوقفت وأشارت بيدها فى الفضاء أمامها وقالت للملك: «انظر يا مولاى! ألا يشوقك أن تستمتع بما يستمتع به هؤلاء من النعيم!».

وينظر الملك فيرى أسرابًا لا تحصى من الزوارق قد ملأت البحيرة مختلفة ألوانها مزدانة أجمل زينة وأروعها يغمرها الضوء فكأنها تسبح فيه كما تسبح فى الماء، تصدر عن بعضها الموسيقى، ويصدر عن بعضها الغناء، وكلها يصور الفتنة والسحر والجمال.

ويهمّ الملك أن يقول شيئًا، ولكن شهرزاد تضمه إليها رفيقة به وتقول له فى صوت فاتر ساحر: «لا تقل شيئًا يا مولاى! فقد خلصت نفسك لى كما خلصت نفسى لك منذ الليلة. انظر

إلى هــذا الزورق يا مولاى! إنه يدعونا فلنجب دعوته. إنك لن تستجيب له حتى تنحسر عنك أيامك المثقلة بالهموم والأحزان والتجارب، وإنى لن أســتجيب له حتى أعود كما كنت قبل أن أتحداك وأتحــدى عندك الملك والموت والحــب جميعًا. هلم يا مــولاى لنعد إلى شــبابنا القديم النقى الذى لا يدنســه إثم ولا تشوبه فتنة ولا تثقله تجربة، وإنما هو ناصع كضوء الشمس، رقيق كضوء القمر، حلو كابتسامة العذراء».

ويرى الملك نفســه مع شهرزاد فى زورق من هذه الزوارق الرائعة التى تسبح فى الماء والضوء والموسيقى والغناء جميعًا. ولكــن ماذا؟ هذه يد تمس كتف الملــك، وهذا الملك يثوب إلى نفسه فجاءة، وإذا هو نائم فى مكانه من زورقه ذاك قد غلبه النوم على شــعوره المســتمتع بما كان يجد من لذة ونعيم. ثم ردته اليقظة لا إلى شــعوره ذاك، ولكن إلى صوت يعرفه لأنه سمعه قبل ذلــك، وإذا هذا الصوت يقول: «فلما كانت الليلة الثانية عشرة بعد الألف قالت شهرزاد».

ثم ينقطــع الصوت، ويمد الملك عينــه ويمد سمعه فيرى شــهرزاد مغرقة فى نوم هادئ، ويســمعها تقول فى صوتها الرائع الحلو:

«بلغنى أيها الملك السعيد أن فاتنة قالت لأبيها ذلك سرى الذى ستفهمه حين أزيل عنه الستار...».

٥

وملـوك الجن يا مـولاى لا يحتاجون إلى مـا يحتاج إليه ملـوك الناس حـين يكتب بعضهم إلى بعض مـن قطع الآماد البعيـدة فى الأوقـات الطويلة ليظهر بعضهم على رسـائل بعض، ولكن لهم فنونًا مـن الحيلة يقطعون بها أبعد الآماد فـى أقصر الأوقات، يكون أحدهم فى أقصى الشـرق فيبلغ ما يريـد لصاحبه فى أقصى الغـرب قبل أن يرتـد إليه طرفه، لا تعوقه مسـافة ولا تصده أمواج البحـر ولا عقاب البر ولا عواصف الجو، كأن لهم أرواحًا تسـعى بينهم بالرسـائل؛ فكلهم بعيد من صاحبه إلى أقصى غايات البعد، وكلهم قريب من صاحبه إلى أدنى آماد القرب.

ومـا أكثر ما يأخذ الناس عن الجـن! ولكن ذلك لا يتأتَّى لهم إلا بعد الجهد والمشـقة، وحين يخطر لـروح من أرواح الجـن أن يتألف فردًا من أفراد الناس. ومن يدرى يا مولاى!

لعــل الناس فيما يســتقبل من الأيــام أن يتعلمــوا من الجن وســائلهم هذه فى اســتخدام الأرواح يتواصلون بها على بعد الشقة وتنائى الآماد.

ومهمــا يكن من شــىء يا مــولاى، فقد أقبــل وزير الملك طهمــان بن زهمان قبل أن يفرغ الملك مــن حديثه إلى ابنته، وجلا يَخفى وجله فى كثير من الجهد، ومذعورًا يُسِـرّ ذعره فى كثير من العناء.

فلما مثــل بين يدى الملك والأميرة قــال فى صوت متهدج مضطرب: «لقد أبلغت تحــدى مولاتنا إلى ملوك الجن جميعًا فى البر والبحر والجــو؛ فكلهم قبل التحدى، وكلهم أنذرنا بحرب تبــدأ الآن، ولكنها لن تنتهى فيمــا يقولون إلا حين تستأسر مولاتنا للمنتصر». ثم وقف واجمًا ذاهلًا لا يكاد يعقل شيئًا، بل لا يكاد يأتى حركة.

فنظرت إليــه الأميرة باسمة ســاخرة، وقالت فى صوت المتضاحكة: «ثم ماذا أيها الوزير؟».

قــال مضطربًــا متلعثما: «ثم إنى أقبلت يــا مولاتى أرفع الأمر إلى مولانا وإليك وأتلقى أمركما».

قالت: «فأى أمر تريد أن تتلقى؟».

فوجم الوزير، ونظر أمامه والتفت عن يمين وشمال، كأنه يتلمس من يلهمه الرد على الأميرة. فلما لم ير أحدًا قال فى صوته المتهدج: «فهل يأذن مولانا فى أن نجمع مجلس الحرب؟».

قال الملك: «هو ذاك».

قالت الأميرة: «وما عسى أن يصنع مجلس الحرب؟».

قال الملك: «يصنع يا ابنتى ما تصنع مجالس الحرب فى مثل الحال التى اضطررنا إليها. فهناك أوامر يجب أن تصدر، وجنود يجب أن تُعبّأ، وأمور يجب أن تُهَيَّأ». إ

قالت فاتنة: «فأرح نفسك يا أبت من مجلس الحرب، فلسنا فى حاجة إليه. لن تصدر الأوامر ولن تعبأ الجنود، ولن يهيأ لهذه الحرب شىء. اذهب أيها الوزير فأذن فى الجن ألا يراعوا؛ فليس عليهم من بأس، وإن هذه الحرب التى بدأت منذ الآن ستنتهى دون أن يصيبهم مكروه، بل أنا أرجو أن يصيبهم منها خير كثير».

هنالك وثب الملك وقد ثــاب إليه حزمه وعزمه وعاد إليه حــده وجده، كأنما هب من نوم عميق طويل فاســتقبل يقظة حافلة بجلائل الأعمــال وعظائم الخطوب، فقال: «اعبثى يا ابنتى ما شــئت أن تعبثى، وجربــى ما أحببت أن تجربى، وتهيئــى لهــذه الحــرب الغريبة التــى دفعتنــا إليها كما تريديــن؛ ولكن دعينــا نعد للحرب عدتها ونســتقبلها كما تعودنا اســتقبالها؛ فإن تنجح وسائلك لم يكن فى استعدادنا شــر ولا فى احتياطنــا ضرر، وإن تخفــق تجاربك لا تؤخذ الرعية والمملكة من تقصير الساسة وإهمال القادة». ثم التفت إلى وزيره قائـًلا: «ادع لنا مجلس الحرب، وما أرى إلا أنك قد فعلت».

قــال الوزير: «فإن قادة الجند وساســة الملك بباب مولانا ينتظرون أن يؤذن لهم فى الدخول».

قال الملك: «فأدخلهم إذًا».

وأقبــل القواد والحكام والمشــيرون، فحيا كل منهم وأخذ مجلســه حيــث ينبغى له أن يجلــس، ثم أخــذوا يتدبرون ويفكــرون ويتشــاورون، ولم تكــن عنايتهــم بحماية الأمن

الخارجى أشد من عنايتهم بحماية الأمن الداخلى. فقد تسامع أفـراد الرعية وجماعاتهـا بهذه الحرب فـى أقل من طرفة عين، فبعضهم أشفق منها فأخذ يحتاط للمستقبل، وبعضهم أدركـه الذعر فأخرجه عـن صوابه وتجاوز بـه القصد فيما ينبغى أن يعمل أو يقال، وبعضهم انتهز فرصة كان ينتظرها فـإذا هو يكيد ويمكـر ويتربص الدوائر بالدولـة القائمة أو بالحكومـة العاملة لهذه الدولة، وبعضهم كان أقرب من هذا همة وأقصر نظرًا وأشـد إيثارًا لنفسـه بالخير وأحرص على تحقيـق منافعه العاجلة، فأخذ يقامـر ويغامر ويجمع المال ويكنز الذهب والفضة ويدخر المؤن، غير حافل بما سـيكون لذلـك من أثر فى حيـاة من حوله من الأفـراد والجماعات، وإنما ركب شهوته واتبع هواه لم يفكر إلا فى إرضاء مطامعه وتحقيق منافعه. ولم يكن بد من الاحتياط لهذا كله والضرب على أيدى هؤلاء جميعًـا. ولم يكن بد من أن يأمن الخائف، ويطمئن المذعور، ويحمى من لا حامى له إلا النظام والقانون، ولم يكـن بد لتحقيـق هذا كله من أن تصـدر الأوامر وتتخذ الأهبـة. ولكن ملوك الجن يـا مولاى ليسـوا كملوك الناس

لا يتعرضــون للإهمال ولا يوصمون بالتقصير ولا ينتظرون أن تلــم بهم الكوارث وتفاجئهم الحوادث، ولكنهم يســتعدون لكل حادثــة، ويتأهبون لــكل كارثة، ويســبقون الخطوب بالاســتعداد لدرئها، تنفذ بصائرهم إلى ما وراء الحاضركما تنفذ أبصارهم إلى ما وراء الجو الذى يعيشــون فيه. وهم من أجل ذلك لا تدهمهم داهمة، ولا تلم بهم ملمة إلا استخرجوا قوانين قد هيئت، وأوامر قــد أعدت، وكلفوا تنفيذ القوانين وإجراء الأوامر جماعــات من أعوانهم قد أعدوا لهذا كله من قبل، ولم يعرف أحد أنهم أعدوا له أو كلفوا القيام عليه.

ومن يدرى يا مولاى! لعــل ملوك الناس يعرفون من هذا بعــض ما يجهلــون، ويتهيئون منه لمثل مــا يتهيأ له ملوك الجن، فلا تؤخذ دولهم على غرة، ولا تفجؤها الحوادث على غير تهيُّؤ ولا استعداد.

ومــن أجل هذا كله يا مــولاى لم يحتج طهمان بن زهمان ووزراؤه وأعوانــه إلى وقــت طويل ليحزمــوا أمرهم ويفرغوا من تدبــير الأمن الداخلــى؛ وإنما مروا بذلك مرًّا ســريعًا، واستقامت لهم أمورهم فى ذلك على خير ما أحبوا.

وكانت فاتنة تسمع وترى وتبتسم غير حافلة بما تسمع ولا آبهة لما ترى، ولكنها مع ذلك كانت تجد شيئًا من الرضا والغبطة؛ لأنها كانت ترى أباها حازمًا عازمًا يدبر الأمر وينفذ القضاء كعهده حين كان قويًّا جلدًا نفاذًا غير متهالك ولا مستيئس.

فلما فرغ القوم من تدبير أمور الرعية، أخذوا يعرضون أمور الحرب ويهيئون لاستقبال العدو المغير، ولم يكن الأمر هينًا ولا ميسورًا؛ فهم قد كانوا تعودوا أن يحاربوا هذا الملك أو ذاك من ملوك الجن، ولم يكونوا ينتظرون أن يحاربوا ملوك الجن جميعًا، وهم كانوا قد ألفوا أن يستعدوا للشر يأتيهم من الجو أو يأتيهم من البر أو يخرج لهم من البحر أو ينجم لهم من الأرض، ولكنهم لم يألفوا أن يأتيهم الشرمن هذه الوجوه كلها فى وقت واحد؛ فلم يكن أمرهم سهلًا ولا تشاورهم رفيقًا.

وكانت فاتنة مع ذلك تنظر إليهم وتسمع منهم غير حافلة ولا مكترثة. على أن شيئًا من الرثاء بلغ نفسها القاسية آخر الأمر فقالت لأبيها:

«ارفق بنفسك وبهؤلاء القادة والساسة يا أبت، فلستم فى حاجة إلى كل هذه الخطط التى تدبرونها وتقدرونها وتديرون فيها الحوار. إن مملكتنا معرضة لشر لا قبل لها به، فإما أن تنجح خطتى التى رسمتها والتى لا تعلمون منها شيئًا، وإما أن نهلك جميعًا دون أن تبقى لنا باقية».

قال الملك وعلى ثغره ابتسامة مُرّة خير منها العبوس: «هو ذاك يا ابنتى؛ فإنك لا تنبئيننى بشىء أجهله، ولكنى لا أحب أن أوخذ على غرة أو أن أوتى من تقصير، فلأجاهد ما استطعت إلى الجهاد سبيلًا، ولأعذر ما وجدت إلى الإعذار طريقًا، وليجر القضاء بعد ذلك بما شاء!».

وما كاد الملك يفرغ من كلامه هذا حتى تغير من حوله كل شىء، فإذا الأرض تميد، وإذا الجو يكفهر، وإذا ظلمة قاتمة تريد أن تأخذ المدينة من جميع أقطارها، وإذا سحب متراكمة متراكبة تظهر فى السماء مرسلة فى الجو بروقًا خاطفة ورعودًا قاصفة، وإذا الوزراء والساسة يذهلون عما حولهم، وإذا القادة ينصرفون كل إلى موضعه من قيادة الجيش، لعله يعمل عملًا أو يبلى بلاء. والملك ثابت مكانه

لا يريـم، ناظـر أمامه لا يحـول طرفه إلى يمـين وشمال، وقد جمدت على ثغره ابتسـامة كانت حائرة فاسـتقرت فى مكانهـا، كأن نفس الملـك لم تجد قوة ولا وقتًـا للتفكير أو التقدير فضلًا عن الابتسام أو العبوس.

وفاتنة باسمة كأن شـيئًا لم يتغير من حولها، وكأن حدثًا لم يحدث، وإنما هى قائمة كعهدها آنفًا حين كانت تنظر إلى مجلس الحرب فى كثير من السـخرية وفى كثير من الرثاء، وحين كانت تنظر إلى أبيها فى كثير من الرحمة والحب وفى كثير من الإكبار والإجلال.

علـى أن صوتًا هائلًا يملأ ما بين الأرض والسـماء فجأة، فتهتـز لـه جنبـات القصر، ويثب لـه الملك ومـن معه من أصحابه كأنما دفعتهم اللوالب فى الفضاء، وإذا هم يسرعون إلى الأطناف يشـرفون منها لا يدرون كيف أسرعوا ولا كيف دفعوا، وإنما يرون أنفسهم مشرفين ينظرون وكأنهم لا يرون، ويصغون وكأنهم لا يسمعون لكثرة هذه الجماهير التى أقبلت إلى القصر فزعة جزعة تجأر بالاستغاثة وتمعن فى الضراعة، وقد استيقنت مخطئة أو مصيبة أنها ستجد عند الملك أمنًا من هذا الخوف ووَزَرًا من هذا الفزع.

والملـك قائم مكانـه ينظر ويصغى، ولا يزيـد على النظر والإصغاء، وماذا يسـتطيع الملك أن يفعل وقد زلزلت الأرض زلزالها، ولبست السماء أبشع ثوب رآه سكان الأرض والجو، فالظلام يتكاثف، والسـحاب يتراكم ويتدافع، والبرق يغمر المدينـة بضـوء مخيف لا يـكاد ينصب عليها حتى ينقشـع عنهـا، والرعد يتجاوب فى الجو بأصـوات متهدجة كأنها أصـوات الجبـال، والبحر مـن بعيد هائج مائـج تصطخب أمواجـه اصطخابًا لا عهـد لأحد به، وترتفع إلى السـحاب فتتصل به لا يدرى أبلغته لأنها ارتفعت حتى انتهت إليه، أم بلغهـا لأنه انخفض حتى انتهى إليها، أم صعدت هى فى السـماء ما وسعها الصعود وهبط هو إلى الماء ما وسعه الهبوط حتى التقت السماء والماء شر لقاء.

وفاتنـة قائمة باسمـة لا تقول شـيئًا. ولا تأتى حركة، ولا يظهـر علـى وجهها الروع أو ما يصـور الروع من قريب أو بعيد. على أنها تسعى رفيقة رشيقة محتفظة بابتسامتها الحلوة حتى تبلغ أباها الملك، فتمس كتفه فى خفة وسرعة، وتقول له فى صوت هامس عذب «منظر رائع يا أبت!..»

ويهم الملك أن يقول شـيئًا، ولكنـه يرد عن القول؛ فهذه المناظر الرائعة المروعة الهائلة ثابتة لا تتحول مرسلة للروع والروعة جميعًا دون أن يصيب المدينة منها شـر أو ينال أهل المدينـة منها مكروه. هذا البحر قد بلـغ من الهياج أقصاه، وانتهـى من الثـورة إلى غايتها، حتى لا يشـك من يراه أنه متجـاوز حدوده فغامر ما وراءها لا يدع شـيئًا أتى عليه إلا ازدرده ازدرادًا وعفى على آثاره تعفية كأن لم يغن بالأمس، وهـو على ذلك واقف عند حـدوده لا يتجاوزها، بل لا يكاد يبلغها، كأن سدودًا خفية قامت بينه وبين هذه الحدود ترده عنهـا وتمنعـه أن يبلغها فضلًا عن أن يجوزهـا. وهو يثور ويمور ويهيج ويموج ويرسل فى الفضاء أصواتًا منكرة، كأنما تتمزق عنها أمواجه تمزقًا، ولكنه على ذلك لا يبلغ شـيئًا، ولا يستطيع أن يمس الأرض بأذى.

وهذه قطع السـحاب تزدحم وتصطدم، وتحدث ما تحدث من بروق ورعود، وترسـل ما ترسـل من الصواعق المهلكة، ولكنهـا على ذلك لا تصيب أحـدًا بما يحب ولا تصيب أحدًا بما يكره، وإنما هى تأتى ما تأتى من الأمر وتحدث ما تحدث

من الهول كأنها تلعب فيما بينها تريد أن تظهر أهل الأرض على فنون من اللعب ليس لهم بها عهد من قبل.

وهـذه الريـاح تتناوح، منها مـا يقبل ومنهـا ما يدبر، ومنها ما يبُامن ومنها ما يُشائم، ولها أحيانًا هفيف كهفيف الأغصـان، وأحيانًا أخرى فحيح كفحيـح الحيات، وأحيانًا أخـرى صفير مخيف، وأحيانًا أخـرى زئير مزعج، ولكنها على ذلك لا تصنع شيئًا ولا تؤذى أحدًا.

وهذه قطع من الجبال مختلفة ألوانها متباينة أحجامها، قد أقبلت من بعيـد، كأنما قذفتها المجانيق تريد أن تدمر بها المدينـة تدميرًا، وهى تمضى فى الفضاء مسـرعة على ضخامتها كأنها السـهام الرقاق حتى لا يشك من يراها فى أنهـا تحمل المـوت والدمار، وفى أن قطعـة منها يكفى أن تهوى إلى الأرض فتسـحقها سـحقًا، وتمحق ما عليها ومن عليهـا محقًا، ولكنها علـى ذلك لا تكاد تدنـو من المدينة حتى تجمد فى مكانها من الجو كأنها قد شـدت إلى السماء بأمراس الكتان كما يقول الشـاعر القديم؛ فهى لا تقبل ولا تدبر ولا ترتفع ولا تنخفض، وإنما تظل معلقة مكانها كأن

كل قطعة منهـــا ظلة هائلة قد علقت فى الجو لترد عن أهل الأرض حر الشمس.

وهذه الأرض تنشق عما أضمرت، وتنفجر فيها ينابيع من اللهب هنا ومن الماء هنـــاك، وترتفع هذه الينابيع المحرقة وتلك الينابيع السائلة فى السماء إلى حيث لا يستطيع البصر أن يتابعهـــا فـــى الارتفاع، وإنمـــا يرتد عنها خاســـئًا وهو حســـير، ولكنها على ذلك لا تحرق شـــيئًا ولا تغرق شيئًا؛ وإنما تمضـــى وتمضى فـــى ارتفاعها، وتمضـــى وتمضى فى اتســـاعها، ثم تتضاءل قليلًا قليلًا، وإذا هى تهبط ثم تهبط، وتضيق ثـــم تضيق حتى تعود هزيلة نحيلة إلى فوهتها التى خرجـــت منها، ثم تنضـــم عليها الأرض كأن لم تكن شـــيئًا لتنشق عن مثلها فى مكان آخر.

وعلى هـــذا النحـــو يضطرب الجـــو والبر والبحـــر أروع اضطراب وأشـــده هـــولًا دون أن يحدث عن ذلـــك ما يؤذى أو يسوء.

وهـــذه جماعات الرعية من الجـــن كان يملؤها الروع منذ حين فجعلت تملؤها الروعة الآن. كانت تجأر بالاســـتغاثة

والضراعــة آنفًا، فهــى تجأر بالرضا والإعجــاب والافتتان الآن.

وهــذا الملك ينظر إلى ابنته نظرات إن صورت شــيئًا فإنما تصــور ذهول الحائر الواجم الذى عجزت نفســه عن التفكير وانعقد لســانه عن القول؛ فهو قائم مبهــوت فى مكانه ومن حوله وزراؤه فى مثل حاله كأنهم التماثيل.

وهــؤلاء قادة الجيــش قد أقبلــوا لا يــدرون أيرضون أم يســخطون، فهم يرون ما يرون من الهول، ويحسون أنهم لا يلقون منه كيدًا، وفيهم مع ذلك حماســة الجند المستبسلين؛ فكلهــم كان يود لو يبلى بلاء ويســجل لنفســه بالانتصار أو الموت فخرًا يتحدث به أعقابه بعد آلاف السنين، ولكنهم مع ذلك قد وجدوا أنفســهم وجنودهم عاجزين كل العجز عن أن يقدموا حين كان يجــب الإقدام؛ يريدون أن يتقدموا إلى أمام فلا يجدون إلى ذلك سبيلًا كأنهم قد ثبتوا فى الأرض تثبيتًا، فإذا أرادوا أن يتراجعوا إلى وراء وجدوا ذلك هينًا ميسورًا.

وهم قد أقبلوا حائرين ثائرين يقولون بصوت واحد ولسان واحد: «هذا هو الســحر أيها الملك! هذا هو الســحر الذى لم

يعرفه قبل اليوم أحد من الجن ولم يعرفه قبل اليوم أحد من الناس».

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وهم شهريار أن يفكر فيما سمع من هذا القصص الغريب، ولكنه لم يصل إلى ما أراد من ذلك؛ فقد أحس نفسه ثقيلة عليه لا يستطيع تحريكها إلى التفكير، وأحس جسمه ثقيلا عليه لا يستطيع دفعه إلى النشاط، وأحس كأن نفسه قد ثبتت فى مكان بعينه لا تستطيع أن تجوزه، وكأن جسمه قد ثبت فى مضجعه فهو لا يستطيع أن يأتى فيه حراكًا. وأحس مع ذلك زورقه ذاك يضطرب به اضطرابا خفيفًا هينًا على الماء، كأنه أرجوحة الطفل تضطرب به اضطرابًا خفيفًا لتدفعه إلى النوم. وأحس مع هذا كله ذلك الجو الموسيقى الغريب هادئًا حلوًا رفيقا يدنو منه هونًا ما، وينأى عنه هونًا ما، كأنه النسيم الهادئ يداعب صفحة البحيرة فى تأنق وترفق وظرف. ثم ينأى الملك من نفسه أو تنأى عن الملك نفسه، ويخيل إليه على هذا كله كأنه يرى فيما يرى النائم أنه فى

زورق جميل خفيف يسبح به وبشهرزاد النائمة منه غير بعيد فى الماء والضوء والموسيقى والغناء جميعًا.

٦

على أن غناء عذبًا يبلغ سمعه كأنه ترتيل الملائكة – لو أن للناس أن يسمعوا ترتيل الملائكة – فلا يكاد يمس سمعه حتى ينتهى إلى نفسه الشاعرة فيوقظها فى أناة ويستلها من النوم فى لطف، كما كان أبو نواس سيستل من الدنّ روحه فى لطف، وإذا الملك يفيق من نومه، ولكنه يمسك نفسه فى هذا السكون الذى كان فيه قبل أن يخرج من النوم، كأنه كان يريد أن يستبقى حلاوة هذا الغناء.

وكان يظن، كما يظن الحالم حين يستيقظ، أنه يغالط نفسه ويغالط النوم، وأن اليقظة ذاهبة بلذة أحلامه لا محالة، ولكنه مع ذلك يسمع هذا الغناء العذب ويحس موقعه من قلبه ويتبين الأصوات التى تحمله والألفاظ التى تحويه. وكأن هذه الأصوات كانت تصدر عن هذه الأمواج الصغيرة التى كانت تصطفق من حوله وتداعب زورقه هذا الغريب،

وكأن هذه الأمـواج كانت تدعوه بصوتها ذلـك العذب قائلة في لغة فارسـية رقيقة حلوة: «أفق أيها الإنسـان السـعيد لتستمتع باليقظة كما استمتعت بالنوم، ولتنعم بالشعور كما نعمت باللاشـعور. أفق أيها الإنسان السعيد؛ فما أقل الذين تتاح لهم السعادة في حياتهم هذه القصيرة! خذ حظك منها حريصًا عليـه كلفًا به؛ فإنك لا تدري متـى تفارقك أو متى تفارقهـا؛ كما أنك لم تدر كيـف لقيتها أو كيف لقيتك. أفق أيها الإنسـان السـعيد؛ فإن أخص ما تمتاز به السعادة أن الذين ينعمون بها لا يدرون أأيقاظ هم أم نيام».

ثم يبعد الصوت ويتضاءل الغناء، ويتسمع الملك؛ فلا يسمع إلا اصطفاق الأمواج هادئًا ناعمًا رفيقًا كأنه صوت الحرير يمس الحرير. ثم ينظر الملك فيرى شهرزاد في سريرها غير بعيد وعلى وجهها ابتسامة حلوة وإشراق رائق وغبطة لا سبيل إلى وصفها، وهي تمد إليـه عينيها كما يمد إليها عينيه، تريد أن تقول له صامتة ما كان يريد أن يقول لها صامتًا: ما أعذب هذا الصوت وما أجمل هذا الغناء! ولكنها لا تقول شيئًا، كما أنه هو لم يقل شيئًا، وإنما تركت عينيها ممدودتين إليه كما ترك هو عينيه ممدودتين إليها.

ثـم تمضى لحظـات طوال أو قصـار، وإذا الملك يسـتوى جالسًـا فى نفس الوقت الذى تسـتوى فيه شهرزاد جالسة، وإذا الملـك ينهض قائمًـا فى نفس الوقت الـذى تنهض فيه شـهرزاد قائمة، وإذا الملك يسعى خطوات قصارًا كما تسعى شـهرزاد خطوات قصارًا، وإذا العاشقان يلتقيان فيتعانقان، فيغيبان فى قبلة عرفـا أولها ولم يعرفا آخرها، ثم يفيقان، وإذا الـزورق ينسـاب بهما فى نهرضيق هـادئ كأن مياهه قد ثبتت فى مجراها، وقد كُسـىَ شـاطئاه عن يمين وشمال عشـبًا أخضركثيفًا كأنه السندس. وينظران فإذا جماعات من الفتيات ينحدرن مسرعات عن يمين وشمال إلى النهر يحيين بالزهر النضر والأغصان الخضر ويدعون العاشقين أن هَلُمَّ فقد بلغتما جزيرة النعيم.

ويرسـو الزورق فى مرسـىقد هيـئ لـه، ويصعد منه العاشقان صامتين، ولكن البهجة تغمر وجهيهما وتنطق عن قلبيهما بما لا تستطيع أن تنطق به الألسنة أو يصوره البيان المبـين. وقل ما شـئت والتمس عند القائلـين ما أحببت من وصف الجنات الرائعة والريـاض البارعة والحدائق الملتفة

والغابات المتكاثفة والأزهار المنسقة والغدران المصفقة، فلن تبلغ مهما يكن حظك من ذلك وصف هذه الجزيرة التى ارتقى إليها العاشقان حين صعدا من زورقهما ذاك صامتين لا يقولان شيئًا.

وكيف تريدنى على أن أصف لك ما لا يوصف، أو أن أصوِّر لك ما لا سبيل إلى تصويره. لقد انعقد لسان شهريار لأنه أحس وعجز عن تصوير حسه، وانعقد لسان شهرزاد لأنها شعرت وعجزت عن تصوير شعورها. ومع ذلك فما أكثر ما قال الملك بعينيه لشهرزاد! وما أكثر ما قالت شهرزاد بعينيها للملك!.

ويخيل إلىّ أن لو أتيح لكاتب أن يترجم بعض ما كانت تقوله هذه الأعين لزعم أن شهرزاد كانت تقول للملك: أترى إلى هذا النعيم! لقد وعدتك به، وكنت أظن أنى سأكون أقدر منك على احتماله، وأنى سأكون منك مكان الترجمان يدلك عليه ويمتعك به ويصف لك دقائقه، ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أثبت لقوته ولا لرقته ولا لسحره، فانتهيت إلى مثل ما انتهيت أنت إليه من العجز والاستسلام.

وكأن شهريار يقول لشهرزاد: نعم! لقد قهر هذا النعيم قوتك الثائرة ونفسك الجامحة، كما قهر قوتى المتهالكة ونفسى المستسلمة .. ولقد سوى بيننا فى هذا الضعف الحلو وهذه الراحة الممتعة أو هذا المتاع المريح: لقد أنزلك إلى حيث أنا، أو رفعنى إلى حيث أنت، فأنا أراك الآن رأى العين، وأنا أعرفك الآن حق المعرفة، وأنا لا أدرى بأى الأمرين أنا أسعد حظا: أبهذا النعيم الذى يغمرك ويغمرنى، أم بهذه المعرفة التى جلت لى نفسك الغامضة وكشفت لى سرك المكنون.

وكانت شهرزاد ترسل إلى الملك من عينيها وشفتيها ابتسامات ساحرة لم تخل من سخرية، ولكنها كانت سخرية واضحة يملؤها الحب والحنان، وليس لها حظ من قسوة أو مرارة، وكانت هذه السخرية تلقى فى روع الملك أن استمتع بهذا النعيم الذى يغمرك ويغمرنى، واستمتع بهذا النعيم الذى تجده من جلاء نفسى الغامضة وانكشاف سرى المكنون، وخذ من هذين النعيمين أكثر ما تستطيع أن تأخذ؛ فإنك لا تدرى متى ينحسران عنك، كما أنك لا تدرى متى يُسِّرا لك ولا كيف يسرا لك. والشىء الذى ليس فيه شك هو أنك ستعود

ملـكا تدبر أمور النـاس وتصرفها كما تريد، وأنك سـتعود رعية تدبر أمورك شهرزاد وتصرفها كما تحب. ولكن أرجو ألا يشق عليك تدبير الملك، وألا يثقل عليك غموض شهرزاد.

وبعـد وقـت لا أدرى أطـال أم قصر أحس الملك لسـانه ينطلـق وصوته يبلغ أذنيه، وإذا هو يقول: «أين نحن؟ وماذا نرى؟ وماذا نسـمع؟ ألا تنبئينى آخـر الأمر من أنت؟ وماذا تريدين...؟!».

قالـت شـهرزاد متضاحكـة: «مـاذا؟! ألم تقـل عيناك منـذ حين إنك قـد عرفتنى حق معرفتـى، وإنك تنعم بهذه المعرفة؟! فما سؤالك عما تعرف؟. أين نحن؟ لقد سمعنا أننا فـى جزيرة النعيم. مـاذا نرى؟ إنما نرى أشـجارًا وأزهارًا ورياضًا وأنهارًا، بذلك تسميها اللغة؛ لأنها تشبه من قريب أو بعيـد ما تعودنـا أن نرى فى مملكتك تلـك التى تركناها أمس، والتى لو أردنـا أن نرجع إليها دون أن يعيننا قصص شـهرزاد لما بلغناها قبل أن ينتهى ما قدر لنا من عمر. ماذا نسمع؟ نسمع غناء تحمله إلينا أصوات هؤلاء الفتيات اللاتى نراهن ولا يريننا. أتعرف من هؤلاء الفتيات؟!..»

قال الملــك: «ومن أين لى أن أعرفهــن ...؟! وهل عرفت شيئًا، أو هل عرفت أحدًا مما رأيت وممن رأيت منذ أمس؟».

قالت شــهرزاد: «قد عرفتهن. فأمــا هؤلاء الفتيات فإنى أعرفك بهن إن شــئت. ولكن أمسك عليك نفسك وأمسك عليك راحتك وأمســك عليك ما يملأ قلبك من غبطة وبهجة ونعيم. هؤلاء الفتيات هن اللاتى لم ترســلهن إلى الموت لأن شهرزاد شــغلتك عنهن بما قصت عليك من أنبــاء الماضى، وبما تقص عليك الآن من أنباء المســتقبل، وستشــغلك عنهن بما تعرف فيهــا وما تنكــر منها من وضــوح وغموض. فهــن فرحات مرحــات، تراهن الآن يصــورن النعيــم كل النعيم، ومنهن الراضية كل الرضا، ومنهن الســاخطة كل الســخط، ومنهن المــترددة بين ذلك، ولكنهن على هــذا فرحات مرحات فيما ترى؛ لأن حياتهن لم تقتضب فى غير إبانها، ولأن شبابهن لم يرد عنهن ردًّا عنيفًا».

وكانت هذه الألفاظ التى كانت شهرزاد تنطق بها متقطعة متفرقة تبلغ أذن الملك لاذعة، وتنتهى إلى قلبه موجعة. ولم تتمها شــهرزاد حتى كان الملك قد ثاب إلى نفســه واستجمع شــعوره كله، وأخذ يعرض ما رأى يقظًا ونائمًا، ولكنه ينظر

فيرى نفسه فى زورقه ذاك، ويرى الزورق ينحدر به فى النهر متجهًا صوب البحيرة التى جاء منها، وعن يمينه وشماله تلك الجماعات من الفتيات يحيين بالأزهار والغصون والغناء، ولكن فى تحيتهن حزنًا أشبه بهذا الحزن الذى تصوره تحية الوداع.

وينظر الملك إلى شهرزاد فيراها جالسة منه غير بعيد معرضة عنه وعن الزورق وعن شاطئ النهر الجميلين وعن جماعات الفتيات وما يحيين به من أزهار وغصون وغناء، وقد أطرقت تنظر فى كتاب.

قال الملك دهشًا: «تقرئين! يا عجبًا! أنى لك هذا الكتاب؟!».

قالت شهرزاد فى لهجة التى لا تكترث بما تسمع ولا تهتم لما تقول: «يا عجبًا! أنى لنا هذا الزورق، وأنى لنا هذا النهر الذى ننحدر فيه، وأنى لنا هذه البحيرة التى نقبل عليها؟! انظر أيها الملك السعيد»... قالت ذلك وأشارت أمامها بيدها. ونظر الملك فلم تبتهج نفسه لما رأى، وإن امتلأت إعجابًا به وعجبًا له.

فقد رأى النهر يتسع من ضيق، وينفرج من تقارب، ويشتد البعد بين شاطئيه حتى يمتزج بالبحيرة امتزاجًا، ورأى وجه النهار قد امتقع وأسبغ عليه شحوب عجيب يشيع فى النفس ألمًا هادئًا وحزنًا فاترًا، ولكنهما على ذلك يؤذيان النفوس، وأحس كأن كل شىء من حوله قد أدركه شىء من ذبول؛ فالنسيم فاتر فيه شىء من حرارة مؤذية .. والأمواج متضائلة تصطفق اصطفاقًا خفيفًا كأنما تحاول أن تشكو آلامًا خفية، فلا تستطيع الجهر بما تجد إلا فى مشقة شاقة وعسر عسير، والطير تحاول أن تتغنَّى صافَّات فى السماء أو راقصات على الغصون، ولكنها تتغنى فاترة حتى كأن غناءها أشبه شىء بالأنين أو الشكاة، وأشعة الشمس هادئة ذابلة تمس ما حولها فى فتور كأنها تصدر عن جذوة أوشكت أن تنطفئ، وهى مع ذلك تحمل حرًّا رطبًا ثقيلًا تندى له الجباه ويتصبب له العرق أحيانًا.

كل شىء هامد خامد، وكل شىء جامد راكد، وفى الجو فتور لا يحتمل وثقل لا يطاق. وإذا نفس الملك تمتزج بهذا كله، وإذا قلبه يخفق فيصدره خفقًا ضئيلًا ثقيلًا، وإذا نفسه

تصطبغ بحزن شاحب مُمِضّ، وإذا هو يصبح كله حزنًا وركودًا كما أن ما حوله حزن وركود. وشهرزاد أمامه مطرقة مغرقة فى القراءة كأنها لا ترى شيئًا ولا تحس شيئًا، وهى مع ذلك تختلس النظرة إلى الملك بين حين وحين تمد إليه طرفها لترده عنه، كأنما تراقبه حريصة على ألا يشعر أنها تراقبه.

وقد أخذ ضوء الشمس يضعف شيئًا فشيئًا، وكأن النهار أحس برد الموت يتمشى فيه، فجعل يرتدى من الظلمة معطفًا فاحمًا قاتمًا ثقيلا؛ ثم يجمد كل شىء ويخمد كل شىء، ويقف الزورق فى مكانه كأنما شد إلى قاع البحيرة بسلاسل غلاظ ثقال.

وتنهض شهرزاد فاترة متثاقلة، وتقول فى صوت هادئ متكسر: «انظر أيها الملك السعيد فإن النعيم والبؤس دولة بين الناس، ينعم بعضهم ويشقى بعضهم الآخر، وينعم الرجال منهم أيامًا أو ليالى من الدهر، ثم يشقى أيامًا وليالى أخرى، وينعم الرجل منهم ساعة من نهار أو ساعة من ليل ثم يشقى سائر ساعات النهار أو سائر ساعات الليل، وقد أخذت بحظك من النعيم، وأخذت بحظى منه؛ فلنأخذ الآن بحظنا

من البؤس، ولنستقبل الآن نصيبنا من الحزن، ولنحتمل الآن عبئنا من الشقاء..»

وينظر الملك فيرى - ويا هول ما يرى! - يرى على شاطئ البحيرة من يمين وشمال شيئًا يشبه الرياض والجنات وما هو من الرياض والجنات فى شىء، شيئًا يشبه أن يكون أشجارًا باسقة فى السماء وما هى من الأشجار فى شىء، إنما هى أشياء يخيل إلى الملك مرة أنها الشجرة ومرة أنها العمد قد ثبُتت فى الأرض وطالت فى السماء وامتدت لها فروع تشبه أن تكون الغصون، ونبتت فى هذه الفروع زوائد تشبه أن تكون الورق، وقامت على هذه الغصون وفى أثناء هذه الزوائد كائنات تشبه أن تكون الطير، وأسبغ على هذا كله ضوء ذابل فاتر شاحب يشبه أن يكون الظلمة لولا أن العين تنفذ منه إلى ما وراءه فى كثير من المشقة والجهد والإعياء، وخرجت من أفواه هذه الكائنات التى تشبه الطير أصوات تريد أن تكون غناء؛ ولكنها لا تبلغ الجو حتى يكون بعضها بكاء وبعضها أنينًا وبعضها حشرجة كحشرجة الصريع المحتضر. هنالك يذعر الملك أشد الذعر، ولكنه لا يستطيع

أن يترجم عما يجد، وإنما هى الرعدة تتمشى فى جسمه كله فيضطـرب اضطرابًا عنيفًا، ثم تسـتقر لتأخذ الملك بين حين وحين، وقد انعقد لسـانه واحتبس صوتـه وجعلت قطرات مـن الدمع تسـاقط على وجهه بين حين وحـين، وهو مقبل على شـهرزاد يريد أن يسـألها أين هو؟ ومـاذا يرى؟ وماذا يسـمع؟ وماذا يجد؟ ولكنه ليس فى حاجة إلى هذا السؤال، فقد خلصت نفسـه لشهرزاد، وخلصت له نفس شهرزاد منذ وقفـا معًا على شـاطئ تلك البحيرة فى ذلك الجو الموسـيقى الرائع وأمام تلك الأسراب من الزوارق البديعة.

لقد فهمت عنه شـهرزاد، وهى تجيبه بلسان لم ينعقد، وصوت لم يحتبس، ووجه يستطيع أن يبين عما يجده قلبها مـن حزن لاذع وغيـظ يملؤه الحنق ورحمة مـع ذلك يملؤها الحنـان: (انظر يا مولاى! هؤلاء ضحايـاك! هذه الكائنات التى تشـبه الطير وما هـى بالطير أتعرفهـا؟! إنها نفوس أولئـك الفتيات اللاتى أرسـلتهن إلى الموت منذ ثرت ثورتك المنكرة بالنسـاء فاتخذتهن أداة للهوك ووسيلة إلى إرضاء ما أفسد قلبك من غضب وما أفسد نفسك من انتقام.

تستطيعَ أن تحصى هذه الكائنات فسترى عددها مطابقًا لعدد أولئك الفتيات اللاتى أهدرت كرامتهن فى غير حب، ثم أزهقت نفوسهن فى غير إشفاق. فهذه النفوس قائمة فى هذه الجنة التى تشبه الجحيم، أو فى هذا الجحيم الذى يريد أن يكون جنة فلا يستطيع. إنها بائسة، إنها يائسة، إنها شاكية، إنها باكية، إن هذه الأصوات التى تسمعها تنطلق بالبؤس واليأس والبكاء والشكاة منذ أرسلتها إلى هذا المكان حتى تؤدى عنها حسابًا يوما ما. فاذرف ما تستطيع أن تذرف من دموع، واحمل ما تستطيع أن تحمل من حزن، واعمل ما تستطيع أن تعمل من خير، وتجرع ما تستطيع أن تتجرع من ندم، وأقم على هذا كله عمرك وأعمارًا كثيرة تعدله طولا، فلن تغسل قطرة من تلك الدماء التى سفكتها، ولن تُرضى نفسًا من هذه النفوس التى أزهقتها، ولن تمحو سيئة من هذه السيئات التى اقترفتها إلا أن يمسك جناح من رحمة الله، وينالك فضل من عفوه؛ فإن لله فى الناس حكمة هو بالغها، وأمرًا هو منفذه.

ثم يرق صوت شهرزاد ويلين حتى كأنه رحمة كله، وإذا هـى تقول: «ومع ذلك بل من أجل ذلك قد أحببتك أيها الملك وتحديت عندك الحب والملك والموت جميعًا. وما أدرى كيف أعلل هذا الحب أو كيـف أفهمه؛ فقد كنت أظن أنى أبغضك أشـد البغض، ولو لم أزف إليك لقتلت نفسـى جزعًا ويأسًا. وقـد كنت أظن أنى أسـتطيع أن أردك عن ذلـك الإثم المنكر الـذى كنت غارقا فيـه، وما كان أحب إلى مـع ذلك أن أنعم بحبـك ليلة ثم أذوق الموت بيدك وآتى إلى حيث أشـارك هذه الطير فيما تعلن من بؤس ويأس وبكاء وشكاة. وقد كنت أقدِّر بعد أن ذقت حبك ونعمت بقربك أنى سـأردّ الموت عن نفسى وعن أمثالى من فتيات الدولة بما ألهيك به من قصص. وقلبى يشـهد ونفسـى تعلم أنى ما ألهيتك بالقصص إلا لأسـتأنف النعيم بحبك وأطيل السـعادة بقربـك؛ فقد كنت أثرة أظهر الإيثار، وكنت محبة لنفسـى أزعم فداء غيرى من النسـاء، وكنت كلفة بإثمك البشع أريد أن أشرب كأسه من يدك وأؤخر شرب هذه الكأس ما وجدت إلى تأخيره سبيلا.

وقــد ظفرت منك بما أردت، وبلغت من حبك ما أحببت، فشــاركتك فى ســعادتك، وشاركتك فى شــقائك، وقاسمتك مــا أتيح لك من نعيم، وشــاطرتك ما قضــى عليك من بؤس، وعصمت منك نساء الدولة على غير إرادة منى. ومن يدرى؟! لعلى آثرت نفســى من دونهن بخيرٍ كُنَّ يطمعن فيه ويطمحن إليه. ففى نفوس الناس وفى نفوس النساء خاصة فساد كثير وشــر عظيم تخفيه صروف الحياة وخطوبها، وتظهره محن الحيــاة وتجاربها. ومن يــدرى! لعل إثمك ذلــك المنكر قد جعلــك فتنة للعذارى كما جعلك فتنــة لى. ومن يدرى! لعل اللاتى رددت عنهن الموت قد كن يحسدننى على هذا الموت، ولعلهن أن يحسدننى الآن على الحياة! بل من يدرى؟! لعل هذه الأصوات المهيبة الرهيبة التى تســمعها الآن لا تشــكو منك، وإنما تشــكو البعد عنك والشــوق إليك. ومن يدرى؟! لعل هذه الشــكاة الملحة المؤذية أن تكون عفوًا عنك واستغفارًا لك. فنفوس الناس عامة ونفوس النســاء خاصة ألغاز مشكلة معضلة قد عجــزت عن حلها حتى فطنة شــهرزاد. إن هذه النفــس الغامضة التى نغصّت أيامــك وأرّقت لياليك لا تمتاز بشىء، وإنما هى نفس امرأة لا أكثر ولا أقل.

املأ نفسك إذًا أيها الملك من هذا الشقاء الذى تشهده الآن كما ملأتها آنفًا من تلك السعادة التى شهدتها فى جزيرة النعيم. واستقبل ليلك وقد ملأت نفسك من البؤس والنعيم جميعًا! فإنك لا تدرى أين يجدك الغد، ولا عمَّ يبتسم لك الصبح، ولا ماذا تضمر لك الأحداث.

ويحسّ الملك كأن يد شهرزاد تمضى رفيقة فى شعر رأسه فتبعث فى جسمه طمأنينة وهدوءًا، وفى نفسه أمنًا وراحة وروحًا. ثم ينسى الملك نفسه أو تنساه نفسه، ولكنه يفيق وقد تقدم الليل وأطبقت الظلمة من حوله على كل شىء إلا ذُبالة ضئيلة فى ناحية من نواحى الزورق تنشر ضوءًا هادئًا غريبًا، وصوت يعرفه ويألفه يقول: «فلما كانت الليلة الثالثة عشرة بعد الألف قالت شهرزاد».

ثم ينقطع هذا الصوت المعروف المألوف ويصل إلى الملك صوت شهرزاد فاترًا أول الأمر، نشيطًا بعد ذلك قليلًا قليلًا وهو يقول: «بلغنى أيها الملك السعيد أن قادة الملك طهمان بن زهمان أقبلوا عليه حائرين ثائرين يقولون: «إنه السحر أيها

الملك! إنه السحر الذى لا عهد به من قبل لأحد من الإنس أو من الجن!».

قال الملك: «نعم إنه السحر الذى لا أعرف له مبدأ ولا منتهى».

ثم التفت إلى ابنته فاتنة كأنه ينتظر منها أن تجيب على ما قال هو وما قال القواد. ولكن فاتنة ظلت قائمة باسمة، فى وجهها إشراق يصور نفسًا فرحة مستريحة، ويصور شيئًا من الإعجاب والرضا، ويصور كثيرًا من الأمل والثقة والفوز.

فلما سمعت مقال أبيها ورأت التفاته إليها. قالت فى طمأنينة وهدوء: «إنه السحر لأنه غير مفهوم، وسيظل سحرًا ما دام سرًّا مكتومًا، فإذا أزيلت عنه الأستار وفهمت مخبآته أصبح علمًا شائعًا يشارك فيه القادرون على فهمه والنهوض بأعبائه».

قال الملك: «ومتى يمكن أن يفهم، وأن يكشف عن مخبآته ؟!».

قالت فاتنة: «بيننا وبين ذلك آماد يا أبت، فيجب قبل كل شىء أن تنجلى الغمرة، وتكشف الغمة، ويُردّ المغيرون

إلى أوطانهم مقهورين. ماذا أقول! بل يجب أن يستسلم المغيرون، وأن ينزلوا من هذا القصر نفس المنزلة التى كان كل واحد منهم يريد أن أنزلها من قصره».

قال الملك: «فأنت تريدين إذًا أن يستأسروا».

قالت فاتنة: «ما من ذلك بُدٌّ. يجب أن يستأسروا، ثم يجب أن يذعنوا ويؤمنوا ويتلقوا ما يُملى عليهم من أصول الصلح التى يقوم عليها نظام الحكم عندهم وعندنا. فليست المسألة أن تثار الحرب ثم تخمد نارها، وإنما المسألة أن تمنع الحرب من أن تثار أو أن تمنع الحرب إذا أثيرت من أن تصيب الأبرياء بما لا ذنب لهم فيه ولا حق لأحد أن يصبّه عليهم من الموت والدمار».

قال الملك وقد أخذ الرضا يعود إلى قلبه، وجعل البشر يفيض من وجهه: «هذا كثير يا ابنتى! هذا أكثر مما كنت أرجو! هذا أكثر مما كنت أنتظر! هذا أكثر مما كنت أظن! إنك لتكلفيننا أعظم مما نستطيع أن نحتمل، وتتنقلين بنا بين اليأس والأمل وبين الخوف والأمن فى سرعة ولباقة لا قِبَل لنا بهما. ولكن أبينى يا ابنتى كيف السبيل إلى أن

تبلغى مـن خصومك ما تريدين، وهـؤلاء قوادنا يريدون أن يقدمـوا فلا يتاح لهم الإقـدام؟ لقد وقف خصَمك عن الهجوم ومنعتهـم أن ينالوا منا ما يحبون، فأبلغينا منهم ما نحب، وخلى بين جيوشـنا وبين الهجوم. فمـا أظن أنك تريدين أن تتواقـف الجيوش على هذا النحو دون أن يسـتطيع فريق أن يبلغ من عدوه شيئًا».

قالت: «بل أنا لا أريد غير هذا يا أبت».

ثم ابتسمت له ابتسـامة ملؤها الحنان والبر وقالت: «ألم تكن تذكّرنى منذ حين بما يجب أن يستشعر قلبى من الرحمة والرفـق، لا برعيتنـا وحدهـا ولكن برعية هـؤلاء المعتدين أيضًـا؟! فإن هذه الحرب، كما كنت تقـول، لا تعنى رعيتنا ولا رعاياهـم من قريـب أو بعيد؛ وإنما هى شـهوة جامحة دفعتهم إلى الشـر والكيد، فأردت أن ألقى شرهم بمثله، وأن أدبـر لكيدهم كيدًا مثله؛ فما ينبغى أن نغامر نحن ويشـقى الأبرياء، وما ينبغى أن يمس رعيتنا أو رعية أعدائنا سـوء. وإنما الحرب بيننا وبينهم تنافس فى قوة الإرادة، وتسـابق إلى الصـبر علـى المكروه، فأينـا ثبت حتى يستسـلم خصمه فهو المنتصر، وأينا سـئم قبل أن يسـأم عـدوه فهو المهزوم،

وما على الرعية إلا أن تشهد هذا الصراع الذى تجرى أحداثه بين سادتها وقادتها، لتُعجب بهم إن شاءت، فقد يكون من بينهم من هو خليق بالإعجاب، ولتسخر منهم إن أحبت، فقد يكون من بينهم من هو جدير بالسخرية. ولكن لتأمن على أنفسها ودمائها وأموالها ومرافقها على كل حال».

قال الملك: «مرحى يا ابنتى! ما أحسن وقع ما تقولين فى نفسى! وما أحبه إلى قلبى! وما أدناه إلى المثل الأعلى الذى طالما أملته وسموت إليه دون أن أبلغه! أيمكن يا ابنتى أن تبلغيه؟! أيمكن أن تبلغيه وأنا حاضر أشهد فوز الخير على الشر وانتصار الرحمة على القسوة؟».

قالت فاتنة: «فإنك تشهد هذا كله يا أبت. لن ينالنا أعداؤنا بما نكره، ولن ننال أعداءنا بما يكرهون، ولكنهم سيفنون قوتهم فى غير طائل، وسيكسرون حدتهم فى غير غناء، وسيضيعون ما ادخروا من عدة وما هيئوا للحرب من أداة دون أن يحصِّلوا من وراء ذلك شيئًا، وسيفقدون سمعتهم فيما بينهم، وسيفقدون سلطانهم على رعاياهم، وسينقلب بعضهم لبعض عدوًّا، وسيصبح بأسهم بينهم شديدًا.

قـال أحد القواد: «ونحن أيتهـا الأميرة ماذا نصنع؟ وما حاجـة الدولة إلينا منذ اليـوم؟ وما قيمة جيوش لا تخوض غمار الحرب ولا ترد عدوان المعتدى ولا تدفع غارة المغير؟».

قالـت فاتنـة: «فإن الجيوش وسـيلة لاتقـاء الحرب لا لابتغائهـا، وأداة لدفـع الشـر لا لاجتلابه. أفـإن جنَبتْكم الحرب وضمنت لكم السـلم والعافية تضجون وتعجون؟! من شـاء منكم أن يغامر فليغامر بنفسـه لا بالأبرياء من جنده. أفضمنتـم أن يُقبل جنودكم علـى الحرب محبين لها راغبين فيها! ألسـتم تعلمون فيما بينكم وبين أنفسـكم أن كل واحد منهـم يُؤثر أن يفرغ لحياته وعمله وأهله، وأن يأخذ نصيبه من الدنيـا دون أن يُعْجلِه عنه هذا الموت الذى تقضونه عليه لا لشـيء إلا لهذه المغامرة التـى تجرى مع دمائكم وتدفعكم إلى هذه الأهوال التى تحبونها لأنكم بمأمن من آثارها؟!».

قـال القـواد: «فهل نفهم من ذلك أن الأمـيرة تعفينا من أعبائنـا، وتردنـا إلى حياتنا الخاصة، وتسـرّح الجيوش، وتفرق الجند؟»..

قالت فاتنة: «لا تفهموا من هذا شـيئًا، فلا أملك أن أعفى منكم أحدًا، ولا أشير على الملك بأن يعفى منكم أحدًا، ولا بأن يسرح الجيش ولا بأن يفرق الجند؛ فالحرب محتملة دائمًا، والشـر متوقَّع أبدًا. وخير أن نحتاط للكـوارث قبل أن تقع، فلعـل ذلك أن يمنع وقوعها، فعـودوا إلى مواضعكم من قيادة الجيش واثبتوا. فمن يدرى! لعل الملك يحتاج إليكم».

وانصرف القواد وهم إلى السـخط أقـرب منهم إلى الرضا، وإلى المعصيـة أدنى منهم إلى الطاعة. فلمـا تفرقوا قالت فاتنة لأبيها: «لقـد انصرفوا، وإن قلوبهم لمطويـة على غير الوفاء والولاء. ولكن التى عرفت كيـف ترد عدوان المغير الخارجى تعرف كيف تكبح ثورة الثائرين فى داخل الوطن».

قال الملك: «ألم يأن لك يا ابنتى أن تكاشـفى أباك بشـىء من هذه الأسرار التى عُميتْ عليه وعلى أهل المملكة جميعًا؟! ومـا أرى إلا أنها معماة على أعدائنا. فانظرى إليهم حائرين ينفقون جهـودًا لا تحصى، ويحتملون أثقالًا لا تسـتقصى، ويرون مـع ذلك أنهم ثابتون فى أمكانهم التى كانوا يريدون أن يغيروا علينا منها».

ولم يكـن الملك يقـول إلا حقًّـا! فقد كانت تلـك المناظر التـى وصفناها آنفًا قائمة كما هـى لم تتبدل: بحر مضطرب مصطخب تـكاد أمواجه تبلغ السـماء، ولكنها لا تكاد تبلغ السـاحل، وريـاح متناوحـة متصايحة، وسـحاب متراكم متراكـب، وقطع مـن الجبال تدور فى الجـو تلتقى لتفترق وتفترق لتلتقى، ورعية الملك طهمان بن زهمان قد ثاب إليها الأمـن وعادت إليها الطمأنينة، وجعلت تشـهد هذه المناظر الرائعة معجبة بها راضية عنها، متسـلية بما تشهد منها، كأنهـا فى ملعب من ملاعب التمثيـل، أو فى ميدان من هذه الميادين التى تعرض فيها الأعاجيب.

وقـد أخـذ أفراد الرعيـة يتحدث بعضهـم إلى بعض عن بدائع هذا السحر وروائعه، ويسأل بعضهم بعضًا عن مصدره ومدبره، وقد سرى فيهم سريان البرق أن الأميرة هى مصدر هذا السـحر وهى التى دبرته وقدرتـه، وردت ملوك الجن مدحورين فى البر والبحر والجو جميعًا.

وكان أفراد الرعية يسمعون عن الأميرة أحاديث مختلطة مضطربة. يعرفون جمالها الرائع وحسنها البارع، ويعرفون

فتنتهـــا وفطنتها، ويعرفون ذكاءها ونفاذ بصيرتها إلى ما لم تنفذ إليه قط بصائر الملوك والملكات، ولكن هذا كله كان يلقى إليهـــم إلقاء، فيصدّق حينًا ويرفض حينًا آخر، ويســمع فى غير اكتراث أكثر الأحيان. فأما الآن وقد رأت الرعية ما رأت وشهدت ما شهدت، فأما الآن وقد كان الهول منها قيد إصبع ثم رد عنها ردًّا عنيفًا، فأما الآن وهى ترى الهول قريبًا منها بعيـــدًا عنها، محدقًا بها عاجزًا عـــن أن يصيبها؛ فقد أصبح إيمانها بالأميرة فتنة لا تشـــبهها فتنة، وأصبح اسم الأميرة فـــى كل فرد من أفـــراد الرعية لفظًا يدل علـــى حقيقة واقعة لا علـــى لون من ألـــوان المجاز؛ فكل فرد من أفـــراد الرعية مفتون بالأميرة مشـــغوف بحبها هائـــم بقدرتها على ابتكار الأعاجيب، وربمـــا كان الملك أعظم من أفـــراد رعيته جميعًا افتتانًا بابنته وإعجابًا ببراعتها وإكبارًا لســـحرها هذا الذى ظن بـــه الظنون، ثم تبـــين أنه لم يوجّه إلى الشـــر كما تعود الســـحرة من الجن والإنس أن يوجهوا ســـحرهم، وإنما هو موجـــه إلى الخير كل الخير، موجه إلى عصمة النفوس وحقن الدماء وإقرار الأمن وحماية الصلات التى تقوم بين الدول على

المــودة والمعروف. وهو من أجل ذلك يلح على ابنته فى عطف مرة وفى اســتعطاف مرة أخرى أن تكشف له عن أسرار هذا الســحر، وأن تبين له دخائل هذه المعجزات. وابنته تطاوله وتماطله، تلطف به حينًا وتعنــف عليه حينًا آخر، والعدو من حول المملكة والمدينة ماض فى جهاده العنيف الســخيف الذى يكلفه كل جهد، ولا يبلغه من وراء هذه الجهود شيئًا.

وتمضــى على ذلك الأيــام تتلوها الأيــام، والليالى تتبعها الليــالى، حتــى انصرفت رعية طهمان بن زهمــان عما كانت ترى، وأعرضت عما كانت تشــهد، وأهملت ما كانت تخافه كل الخــوف، وازدرت مــا كانت تُعجب بــه كل الإعجاب، ومضت تضطرب فى حياتها تستأنف منها ما كانت قد تركته حــين ألمت بها نذر الحــرب، وكان الواحد من الجن من أهل المملكة يغدو على عمله ويروح إلى أهله ويتصرف فى أمره كأن وطنــه لم يتعرض لمحنة ولم يلمّ به مكروه، وكأن جند العدو لا يملأ من حوله البر والبحر والجو، وما يعنيه من عدو يُفنى قوته دون أن يبلغ منه شيئًا؟.

فلما كان ذات يوم جلس الملك يحاور ابنته ويداورها يريد أن يعرف منها جليـــة هذا الأمر الغريب. وهى تلقاه بالإباء حينًا وبالدل والدعابة حينًا آخر. ولكن وزيره يدخل ســعيدًا متهلــلاً، فيحيى ثــم يؤذن الملك بأن ســفراء العدو قد أقبلوا يُلقون بأيديهم ويسألون السلم.

قــال الملــك: «فوجه هــذا الحديــث إلى التــى حاربتهم فَحرَبَتَهم، فأما أنا فلســت لكم بملــك منذ اليوم. لقد أخذت نصيبــى مــن الملك وتركت مــا بقى منه لابنتــى هذه؛ فهى ملكتكم منذ الآن، وهى التى ســتلقى السفراء وستملى عليهم شروط السلم كما تشاؤها هى لا كما أشاؤها أنا».

ثــم نهض الشــيخ متثاقلًا فضم ابنته إليــه ضمًّا طويلًا ثم أجلســها مكانه وقدَّم إليها تحية الملوك. هنالك تقدم الوزير إلى الملكــة فحياهــا تحية الملك، ثــم خرج فــأذَّن فى القصر والمدينة والمملكة بمــا كان من ارتقائها إلى العرش ونهوضها بأعباء الســلطان، وبأنها هى التى ســتلقى السفراء وستملى عليهم شروط السلم كما تشاء.

وما أكثر ما وصفت لك يا مولاى ابتهاج المدن والممالك حين ينـــزل ملك عـــن العرش ويرقى إليه ملك آخـــر!. فقد ابتهج قصرفاتنـــة ومدينتها ومملكتها بارتقائهـــا إلى عرش آبائها كما تعودوا أن يبتهجوا كلما تخلى عن عرشـــهم ملك وارتقى إليه ملـــك. ولكن ابتهاجهم فى هذه المرة كان خالصًا صفوًا لا يخالطه حزن ولا يشوبه أسى.

فقد كان طهمان بن زهمان حيا بينهم ينتظرون أن يروه لم يفارقهـــم إلى غير رجعة، وكان حبهم له يزيد فى ابتهاجهم بابنته، وكان إعجابهم بفاتنة يخرج بابتهاجهم عن الأطوار المألوفة. ولو أن رعية عبدت ملكًا لعبدت رعية فاتنة ملكتها.

وكان طهمان بن زهمان نفســـه أســـعد الجن بهذا الحدث العظيـــم؛ فقد كان يحب ابنته ويعجب بها ويفتتن ببراعتها كمـــا قلت، وكان يرى ارتقاءهـــا إلى العرش حقًّا وعدلًا قد ردَّ الســـلطان إلى أهلـــه ووكل الأمر إلى من ينبغـــى أن يوكل إليه الأمر. وكان يرى نفســـه أســـعد من تقدمه مـــن ملوك الجن. فقد ختم ملكُه عصرًا قديمًا مضى بحســـناته القليلة وسيئاته الكثـــيرة. وبدأ ملك ابنته عصرًا جديدًا يظهر أن الحســـنات

فيه ستكون أكثر جدًّا من السيئات، ومن يدرى! لعله أن يكون خيرًا كله. وكان طهمان بن زهمان ناعم البال قرير العين مبتهج النفس؛ لأنه يشهد هذه النقلة الخطيرة فى حياة الجن؛ ويشهدها تتم على يد ابنته التى يؤثرها بالحب والعطف والحنان. وكان يقدر أنه قد أنفق ما أنفق من آلاف السنين، وأنه قد أشرف من حياته على آخرها، ولكنه مع ذلك يأنس فى نفسه قوة وأيدًا، ويحس أن سيُمدّ له فى العمر حتى يرى ابنته وهى تدبر أمور الملك، ولا يشك فى أنه سيرى من تدبيرها العجب العجاب.

وانتهت أعياد المملكة، وآن للسفراء أن تستقبلهم الملكة؛ فاستقبلتهم فى حفل ساذج يسير لم يتعوده القصر ولم تتعوده الرعية، فلم تقم زينات ولم يصطف الجند ولم تجلس الملكة للناس فى ذلك البهو العظيم من أبهاء القصر، وإنما خلت إلى أبيها فى غرفته تلك التى كانت تخلو فيها إليه، وأذنت للوزراء وقادة الجند وساسة الملك. فلما أخذ كل منهم مجلسه أذنت للسفراء؛ فلما أدخلوا عليها وتقدموا بتحية ملوكهم وسادتهم وهمّوا أن يطلبوا إليها السلم أشارت بيدها فاستمعوا

لها، فألقت إليهم هـذه الكلمات فى صوت هادئ ملأ قلوبهم رهبًا ورعبًا، قالت: «تعلمون أن هذه الحرب لم تثر بين دولنا وإنما أثارها أشـخاص ملوككم على شـخصى، فلا سفارة فى هذه الحرب ولا سـفارة فى هذا الصلح؛ فعـودوا إلى ملوككم موفورين، وأبلغوهم أن من أراد منهم صلحًا فليلتمسه بنفسه ساعيًا إليه لا مسفرًا فيه».

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وامتنع النوم على شهريار هذه المرة بعد أن انقطع حديث شـهرزاد. ولكـن أرقه لم يكن ثقيـلاً عليـه ولا بغيضًا إليه فى هـذه الليلة؛ فلم يحتـج إلى أن ينهض من مضجعه، ولم يشعر بالحاجة إلى النشاط الذى يذهله عن نفسه ويشغله عن خواطره، وإنما كان حريصًا أشـد الحـرص على أن يخلو إلى نفسه ويفرغ لخواطره بعد أن شغل عنها وقتًا طويلا، بما مر به من الأحداث ومـا ألقى إليه من الأحاديث. وكان كل همه أن يخطئ النوم طريقه إليه، وأن يبقى هو فى مضجعه وادعًا مطمئنًا يسـتعرض حياته هذه المعقدة أشـد التعقيد الملتوية أشد الالتواء، يستحضر ماضيه البعيد والقريب، ويحاول أن

يتصور حياته فيما يستقبل من الأيام. وكذلك أنفق بقية الليل مع نفسه ناظرًا بين حين وحين إلى شهرزاد وهى مغرقة فى نومها الهادئ كأنها لم تقص عليه شيئًا ولم تتحدث إليه بشىء. وكان يذكر أيامه تلك السود حين كانت امرأته تلك تخدعه عن نفسه وعن حبه وعن شرفه وتزدريه فيما بينها وبين نفسها أشد الازدراء، تستعين على ذلك بوصائفها وجواريها، غير حافلة بما أعطت على نفسها من عهد، ولا آبهة لجلال الملك ولا مقدرة لعواقب الخيانة والغدر. وكان يذكر مرارة الانتقام وحلاوته، ونار الغيرة تلك التى كانت تتأجج فى صدره فتحرق قلبه تحريقًا وكانت مع ذلك بردًا وسلامًا على نفسه الجريحة الثائرة.

ثم كان يذكر تلك الأيام السود التى أنفقها بعد مصرع نساء القصر نهبًا مقسمًا بين لذة الحب وشهوة الانتقام، يُقبل على اللهو بقلب يظهر الفرح والمرح والابتهاج والغبطة، وفى ضميره الغيظ والحنق والبغض الذى لا يطفئ جذوته إلا الدم المسفوك. أكانت أيامًا يشرق فيها ضوء النهار، أم كانت ليالى مظلمة لا يهتدى الضوء فيها إلى سبيل؟!

أكان فى تلك الأيام إنسانًا يحس ويشعر ويفكر ويقدر، أم كان قوة مدمرة لا تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم؟!

ثم كان يذكر شهرزاد حين عرضها عليه أبوها الوزير وفى نفسه كثير من خوف وقليل من رجاء، وحين أقبلت إليه مع الليل تظهر حبًّا وثقة وتضمر بغضًا وخوفًا، ومن وراء ما تظهر وما تضمر حيلة واسعة وذكاء عجيب نفاذ.

ثم يذكر هذه الليالى المتتابعة التى شغلته فيها شهرزاد بنفسها وقصصها عن الحب والبغض، وعن الغيرة والانتقام، وعن نفسه وملكه؛ حتى إذا انقضى القصص ورُدّ إلى نفسه ملكًا كما كان فى تلك الأيام السود ردت إلى نفسه خواطرها الحمر وعواطفها الثائرة وشهواتها المضطربة المختلطة، ورد إليها قبل كل شىء هذا القلق المتصل الذى يفسد الحياة على الأحياء. ونظر فإذا هو بين نفسه هذه المضطربة القلقة الثائرة التى لا يستطيع أن يخلو إليها، وبين شهرزاد هذه المحبة المبغضة الرحيمة القاسية الفاتنة المفتونة الواضحة الغامضة، التى لا يعرف لها كنهًا ولا يطمئن منها إلى حال. وهو مقسَّم

بين هذين النوعين من العذاب، يخلو إلى نفســه فيشقيه القلق والخوف، ويخلو إلى زوجه فيشقيه الحب والشوق إلى المعرفة واليأس من إرضاء الحب ومن إرضاء الشوق إلى المعرفة.

ثم يذكر تلك الليلة التى آذنه فيها طائفه ذاك بأن شهرزاد ستســتأنف الطب لنفسه نائمة بعد أن كانت تطب لها يقظة. وإذا هو يســمع من هذا القصص ما يســمع، فينعم بشهرزاد نائمة ويشقى بها مستيقظة.

وتشــعر هى بذلك فتريد أن تطب له فى الحالين، فتخلط يقظتــه بنومــه وتجعله يحلــم نائمًا ويقظــان. وإلا فأين هو الآن؟! أيــن هو من قصره ومدينــة ملكه؟! أين هو من جنده وحاشيته؟! أين هو من غرفته وأحراسه؟! ما هذا الزورق؟! وما هذه البحيرة التى يســبح فيها الزورق على غير هدى؟! كيــف انتهى إليها! كيف حمل عليهــا؟! ماذا رأى فيها؟! مــاذا عرف منها وماذا جهل؟! أنائم هو أم يقظان؟ أحالم هو أم عــالم؟ أعاقــل هو أم مجنون؟ ولكن مــاذا؟ هذا صوت حلو يبلــغ سمعه، إنه صوت شــهرزاد، إنها تتحــدث إليه. لقد أفاقــت من نومها. إذًا أين هو من الزمن؟ أفى الليل هو أم فى

النهار؟! إنه يفتح عينيه ويقلبهما فى كل وجه فيرى نورًا لا يشبه النور وظلمة لا تشبه الظلمة. أنائم هو أم يقظان؟ أحالم هو أم عالم؟ أعاقل هو أم مجنون؟ ولكن حديث شهرزاد يصل إلى أذنه، ما فى ذلك شك، إنها تدعوه وتلح فى الدعاء. إن صوتها لا يخلو من دعابتها الساخرة الساحرة. إنها تنبئه بأنه ليس نائمًا ولا حالمًا ولا مجنونًا، ولكنه يقظان عالم عاقل، يحس نفسه كما هى، ويحس الأشياء من حوله كما هى، ويسمع صوت شهرزاد التى تتحدث إليه ويفهم عنها حديثها حق الفهم. ولكنه لا يكاد يطمئن إلى هذا الحديث. إنه ينكر هذا الطور من أطوار الزمن الذى لا يشبه النهار كما عرفه ولا يشبه الليل كما ألفه؛ لأنه ليس فى عالم الليل والنهار، وإنما هو فى عالم غريب من عوالم القصص. أفق يا مولاى من نومك إن كنت نائمًا، ومن يقظتك إن كنت مستيقظًا؛ فلست فى عالم الليل والنهار، ولست فى عالم النوم واليقظة، ولست فى عالم الحلم والعلم، وإنما أنت فى عالم يختلط فيه هذا كله، ويشتبه فيه هذا كله، ولا تميز فيه إلا نفسك وإلا حبيبتك، شهرزاد. أفق يا مولاى أو لا تفق؛

فإن كلا الأمرين سواء. اسمع منى وتحدّث إلىّ أو لا تسمع منى ولا تتحدث إلى! فقد خلصت نفسك لى كما خلصت نفسى لك، فليفرغ كل منا لصاحبه، فقد غفل عنا كل شىء لأننا خرجنا من كل شىء وبعدنا عن كل شىء. افهم يا مولاى أو لا تفهم؛ فليس من المهم أن تفهم أو لا تفهم، وإنما المهم أن تتحدث نفسك إلى نفسى وأن يصل إلى نفسى حديث نفسك سواء أحمله إلى الصوت أم انتهت به إلىّ نجوى الضمير.

وأنفق الملك ما شاء أن ينفق من الوقت غائبًا عن نفسه وشاهدًا لها، يحس فى قوة لذة مؤلمة أو ألمًا لذيذًا، قد فنى فى شهرزاد وفنيت فيه شهرزاد، فعرف الحب حين يبلغ أشد أطواره عنفًا، وعرف الحب حين يبلغ أعظم أطواره رقة ولينًا ولطفًا. يجد ذلك كله فى نفسه، ولكنه لا يحسن تصوره ولا تصويره ولا وصفه ولا التعبير عنه، إنما امتزجت نفسه بنفس حبيبته، فأصبحا حبًّا خالصًا يسبح بهما زورق غريب فى بحيرة غريبة وفى عالم ليس إلى تصوره ولا إلى تصويره من سبيل. عالم كان يقرأ عنه فى الكتب حين كان المتصوفة يعرضون ما يعرضون من تلك الأطوار الغريبة التى لم يكن

يتصورها ولم يكن يصدق أن إنسانًا يستطيع أن يبلغها. أتكون شـهرزاد هاديته إلى التصوف ومرشـدته إلى الحقائق العليا وإلى عالم المعرفة الذى تطمح إليه نفس الإنسان طموحًا غامضًا وتشقى لأنها لا تبلغ منه ما تريد!

ومهما يكن من شيء، فقد أخذ الملك يثوب إلى نفسه قليلا قليـلا، ويجد فى هذا ألمًا ممضـا، ويحس كأنه يدفع إلى عالم لا عهد له به، وكأن نفسه قد أصبحت غريبة فى هذا الجسم الـذى تُرَدّ إليه، وكأنه قـد ارتقى فى الجو إلى أبعد ما يمكن أن يرتقى، ثم أهبط فجأة إلى الأرض، فكاد يختنق من سرعة الهبوط، وكادت نياط قلبه أن تتقطع من شـدة ما حبس عنه الهواء.

وأخـذ الملك يحس كأن شـهرزاد إلى جانبـه تجد مثل ما يجد، وتألم مثل ما يألم، ويعاودها الشقاء كما يعاوده الشقاء. ثم ينظر إليها دهشًا وتنظر إليه دهشة، والزورق يسبح بهما دائمًا فى الماء والضوء والموسـيقى والغناء. هنالك يسمع الملك صوت نفسـه وهو يسأل شهرزاد وكأنه يأتى من بعيد: «أين نحن؟! ماذا نسـمع؟! وماذا نرى؟! ألا تنبئيننى آخر الأمر من أنت وماذا تريدين؟!». ثم يسـمع ضحك شهرزاد ساخرًا

ساحرًا وصوتها مداعبًا ملاعبًا وهو يقول: «لقد رجعت إلىّ مولاى ورجعت إليك بعد غيبة طويلة.

انظر! هذه شهرزاد تتحدث إلى شهريار فى زورق من زوارق القصرعلى تلك البحيرة التى أشرف عليها القصر يومًا ما، ومد إليها وما زال يمد إليها يدًا كأنه يريد أن يهوى إليها أو أن يأخذ منها شيئًا. انظر يا مولاى! أترى إلى هذه الأسراب من الزوارق تزينها الغصون الخضر والورق النضر والزهر البهيج! إنها تسبح فيها كما يسبح هذا الزورق، وفيها أزواج من الفتيات والفتيان قد نعموا كما نعمنا وألِمَوا كما ألمنا. وهم يعودون إلى حياتهم الهامدة الجامدة الراكدة كما نعود إليها، وفى نفوسهم مثل ما فى نفوسنا من الحزن، وفى قلوبهم مثل ما فى قلوبنا من الأسى. انظر يا مولاى! املأ عينيك مما ترى، وأذنك مما تسمع، ونفسك مما تشهد، فلن يبقى لك من هذا كله إلا الذكرى. انظر يا مولاى! بحيرة من ماء يغمرها بحر من ضياء، وبحر من موسيقى، وبحر من غناء، ويقوم عليها إلى حين قصر ملك من الملوك شقى فيه وسعد، ونعم فيه وابتأس، ثم خرج منه فخرج من سعادة الناس وشقائهم ومن نعيم الناس وبؤسهم حينًا طويلًا

أو قصيرًا، ثم هو يعود إليه ليستأنف فيه حظه من سعادة الناس وشقائهم ومن نعيم الناس وبؤسهم».

قال الملك فى صوت حزين كأنما يأتى من بعيد: «أليس يمكن أن ننأى عن هذا القصر إلى آخر الدهر؟!».

قالت شهرزاد: «ليس ذلك فى طاقة القصص يا مولاى؛ وإنما القصص فرجة من حياة الناس تطل على عالم المثل العليا، يخرج الناس منها ليعودوا إليها. هلم يا مولاى!. ألا ترى أن الزورق قد انتهى بنا إلى حيث دعانا إلى نفسه منذ حين! ألا تسمع دعاء القصر؟! إنه يلح علينا فى أن نصعد لننعم كما كنا ننعم، ونأسى كما كنا نأسى».

وتنهض شهرزاد وتأخذ بيد الملك، وإذا هما فى ذلك البهو الذى تناءت أرجاؤه وتباعدت أطرافه وأحاطت به البحيرة من جهاته الثلاث، وغمره ذلك الجو الغريب من الموسيقى والغناء، وإذا شهرزاد قد أجلست الملك فى مجلسه ذاك وجلست إلى جانبه رفيقة به عطوفة عليه، تسأله بصوتها الهادئ العذب الذى يمتزج بما حوله من الموسيقى: «أيرى مولاى أن شهرزاد قد وفت بما قدمت له من وعد؟».

ثم ينظـر الملك فلا يملـك أن يدفع صيحـة منكرة ملؤها الدهـش والحنـق والغيظ: «مـاذا؟ أين أنا؟» ولكن رئيسـة الوصائـف تتقدم إليه فتحييـه ثم تقول: «أرجـو أن يكون مولانا قد أنفق وقتًا سعيدًا».

٧

وأوى الملك إلى مضجعه من ليلته تلك، وأحب شيء إليه أن يعـود إلى ليل الناس، فينام كما ينامون، لا يعتاده الأرق ولا يوقظه الطيف ولا يسـليه القصص النائم أو القصص المستيقظ . فنفس الإنسـان سـؤوم، وقدرتها على احتمال الأعاجيب محـدودة. وقد احتملت نفس شـهريار مـن الأعاجيب أكثر ممـا كانت تطيق، فليعد رجلًا من النـاس، وليحيا بغرائزه الجامحة وعقله المتواضع الضئيل كما يحيون، من له بذلك؟! وما سـبيله على النوم؟! وما سـلطانه علـى الأطياف؟! إنه لمغرق فى نومه، قد فقد نفسه وفقدته نفسه. ولكن هذا صوت الطائف يبلغ أذنيه، وهذا شيء كأنه يد الطائف يمس كتفه، وهـذه الكلمـة تلقى فى روعه: ما أسـرع ما سـئمت قصص

شهرزاد! أسرع فإنها توشك أن تتحدث إلى نفسها. وينهض الملك مسرعًا لا يلوى على شيء، فيسعى من غرفته إلى غرفة الملكة، ويمر بأحراسه وبأحراس الملكة غير ملتفت إليهم ولا حافل بهم، وينسل إلى غرفة الملكة رفيقًا رشيقًا حتى يأخذ مجلسه ذاك الذى تعود أن يأخذه كأن العهد به لم ينقطع، وإذا هو مصغ قد جمع نفسه كلها وضم بعض أجزائها إلى بعض كما تنضم أوراق الزهرة التى تنتظر لتتفتح أن تمسها قطرة الندى. وهذه قطرة الندى تمس نفس شهريار؛ فهذا الصوت المعروف المألوف يقول: «فلما كانت الليلة الرابعة عشرة بعد الألف قالت شهرزاد».

ثم ينقطع الصوت وتستأنف شهرزاد حديثها قائلة: «بلغنى أيها الملك السعيد أن الملكة فاتنة ردت على ملوك الجن سفراءهم، وأبت أن تسمع طلب السلم إلا من الذين شبوا نار الحرب. وقد عاد السفراء إلى سادتهم مخذولين مدحورين. ولكن وزراء الملكة ورجال حاشيتها أنكروا فى أنفسهم صنيع مولاتهم بالسفراء ومن أرسلوهم، ولم يستطيعوا مع ذلك أن يجهروا بما أضمروا أو أن يعلنوا ما أسروا. وعرفت الملكة

ذلك، فلم تسألهم عنه ولم تبادلهم بشيء منه. على أن أباها طهمان بن زهمان هو الذى اجترأ عليها هذه المرة كما اجترأ عليها حين تحدت ملوك الجن ودعتهم إلى الحرب».

قال طهمان بن زهمان: «لم يبق لى من الأمر شيء يا ابنتى يبيح لى أن أتحدث إليك فيما تبرمين أو تنقضين. بل لم يكن لى من الأمر شيء قبل أن أنزل لك عن هذا الملك الذى أنت أحق به منى وأقدر بشبابك وحكمتك وفطنتك على تدبيره وتصريف أموره من هذا الشيخ الفانى الضعيف. فلست أتحدث إليك الآن؛ لأن لى فى الحديث حقًّا يبيحه لى القانون أو تخولنى إياه مراسم الملك، وإنما أنا أب يتحدث إلى ابنته. ومن حق الآباء يا ابنتى بل من الحق عليهم أن ينصحوا لأبنائهم وإن كان من العسير على الشباب الذين يستقبلون الحياة واثقين بأنفسهم وبالحياة أن يسمعوا لنصح الشيوخ الذين يستدبرون العيش شاكين فى أنفسهم وفى العيش، فهبينى أريد أن أريح نفسى حين أراجعك فيما أصدرت من أمر، إنك ملكة يا ابنتى، وللملوك حرمة وقدس، وما أرى إلا أنك حريصة على أن ترعى حرمتك ويوقر لك ما أنت جديرة به من الإكبار وأحسب أن أول ما يجب عليك فى ذلك هو أن تؤدى إلى

الغير ما تحبين أن يؤديه غيرك إليك. وقد كانت بينك وبين هؤلاء الملوك حرب أعلنها السفراء، ويراد أن يكون بينك وبين هؤلاء الملوك سلم يطلبه السفراء ويقررونه. فما عدولك عن هذه الطريق المألوفة؟ وما ابتداعك سنة لم يعرفها ملوك الجن فيما توارثوا من السنن والتقاليد؟!

وسيقول بعض شعراء الناس فى يوم قريب أو بعيد:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نسر

وهذا اليوم لك يا ابنتى فلا تَبْطَرى ولا تأشرى ولا تسرفى على عدوك المنهزمين. وخصمك المقهورين؛ فقد يكون يوم آخر عليك فيأشر عدوك كما أشرت، ويبطر خصمك كما بطرت، ويسرفون عليك كما أسرفت عليهم، ويردون سفراءك مهينين كما رددت سفراءهم مهينين.

وشىء آخر يا ابنتى وددت لو قدرته وفكرت فيه؛ فقد كان هؤلاء الملوك يستطيعون أن يرجعوا عن حربك كما أقدموا عليها دون أن يسفروا إليك أو يعرضوا عليك صلحًا، ينتظرون أن تدور الأيام لهم بعد أن دارت عليهم؛ ولكنهم قبلوا الأمر الواقع ومضوا على سنة الملوك من قبلهم، فاعترفوا لك

بالغلب وألقوا إليك السلم وطلبوا منك الصلح. فاحذرى وقد لقيتهم هذا اللقاء ورددت مجاملتهم هذا الرد، أن يعودوا أدراجهم وأن يطاولوا ويماطلوا وينتظروا معاودة الحظ لهم، وأن يبقى الأمر بينك وبينهم مختلطًا مضطربًا، لا هو بالسلم التى تستأنف فيها الصلات بين الأمم والشعوب، ولا هو بالحرب التى يكون فيها الغالب والمغلوب. وما أظن يا ابنتى أنك تريدين أن تغيرى على هؤلاء الملوك فى ممالكهم ولا أن تغزو جيوشك كل واحد منهم فى عقر داره فقوتك لا تبلغ هذا، وحبك للرعية يأبى عليك أن تعرضيها لحرب الهجوم بعد أن عصمتها من حرب الدفاع. وإذًا فسيبقى الأمر معلقًا بينك وبين أعدائك حتى يستأنفوا الحرب أو تزهدى أنت هذه الحال المعلقة فتطلبى إليهم السلم، ويوشك كل واحد منهم أن يرد عليك سفراءك كما رددت عليه سفراءه. وبعد؛ فإن الملوك لا يعاملون أنفسهم هذه المعاملة ولا يطلب أحدهم إلى الآخر أن يذل ويستكين ويسعى طالبًا للصلح ومعطيًا بيده. كان ذلك يجرى فى الزمن القديم قبل أن تتحضر الجن وتقرر القواعد التى تنظم العلاقات بين الأمم والشعوب وبين الدول

والملــوك. فأما الآن فإن نظام الســفراء لم يخترع عبثا، وإنما أنشئ لمثل هذا الأمر الذى أنتم فيه».

قالــت الملكة باسمــة: «أحببْ إلىّ بكل مــا تأمرنى به يا أبت وبكل ما تشير به علىّ؛ فأنت الملك وستظل الملك دائمًا، وإنمــا أنا رعية لك. وإذا نهضت بالأمر فإنما أنهض به. لأن طاعتك على واجبة، ولأن شــبابى وقاء لشيخوختك. وكل ما قلتــه لى حق لا غمــوض فيه ولا غبار عليه لــولا أنى ضامنة أن هؤلاء الملوك الذين أثاروا حربهم ظالمين لن يســتطيعوا أن يعــودوا إلى ممالكهم حتى آذن لهم بهذه العودة. فإن الســر الــذى أتاح لى أن أحول بينهم وبــين الفوز يتيح لى أن أحول بينهــم وبين الإيــاب إلى أوطانهم. فهــم معلقون بأمرى بين النصــر والهزيمة: لن يُنْصروا لأنى لا أريد لهم أن ينصروا، ولن يرجعوا لأنى آبى عليهم أن يرجعوا».

قال طهمان بــن زهمان: «ويحك يا ابنتى! أتســتطيعين ذلك؟».

قالت: «كما اســتطعت أن أقفهــم موقفهم هذا لا يتقدمون خطوة».

قال طهمان بن زهمان: «إن كل أمرك غير مفهوم يا ابنتى. ويظهر أنك لا تريدين أن أفهم منه شيئًا».

قالت الملكة باسمة: «من يدرى؟! لعلك تفهم منه كل شىء فى وقت قريب أقرب جدًّا مما تظن، ولكنك تنكر علىّ ردّى للسفراء ومعاملتى للملوك بغير ما جرى به العرف، وحملى إياهم على ما لا ينبغى لهم من الذلة والهوان. وقد كان هذا حقا لو أنى أثرت عليهم حربًا ظالمة. وقد كان هذا حقًّا لو أنهم أثاروا على حربًا دعا إليها اختلاف مصالح الشعوب وتباين منافعهم وتقديرهم لهذه المصالح والمنافع، سواء أكان هذا التقدير خطأ أم صوابًا، ولكنهم أثاروا حربًا ظالمة لم تقتضها مصلحة عامة ولم تدع إليها منفعة عاجلة أو آجلة لأمة من أممهم أو شعب من شعوبهم؛ إنما اتبع كل منهم هواه وركب رأسه وانقاد لشهوته الجامحة.

وقد كنت تذكرنى يا أبت بأن هذه الحرب إنما أثيرت لأن هؤلاء الملوك يحبوننى ويخطبوننى وأنا لا أحب منهم أحدًا ولا أرضى لنفسى من بينهم زوجًا. وكنت تذكرنى بأن هذا الأمر لا يعنى رعيتنا ولا رعايانا من قريب أو بعيد. فهذا

الظلم الصـارخ، وهذا العدوان المنكر، وهـذا الإهدار لحقوق الشـعوب، وهذه التضحية الآثمة بالنفـوس التى أمر الله أن تعصم والدماء التى أمـر الله أن تُحْقَنَ والحرمات التى أمر الله أن تُرعَى، فى سـبيل شـهوة فردية لا تعتمد على ما يشـبه الحق أو العدل؛ كل هذا خليق أن يهدر حق مقترفيه فى طاعة الشـعوب، وكل هذا خليق أن يلغى حق مقترفيه فى النهوض بأمر السلطان.

فهؤلاء المعتدون عندى ليسوا ملوكًا ولا أشباه ملوك، وإنما هم عندى طغاة ظالمون. فإن للملك حقوقه، ما فى ذلك شـك؛ ولكـن هذه الحقوق رهينة بواجبـات ينبغى أن تؤدى؛ فإذا ضيعت الواجبات أهدرت الحقوق.

فالسفراء الذين أقبلوا على ثم ردُّوا مخذولين على سادتهم، لم يكونوا سفراء ملوك يأخذون الملك بحقه، وإنما كانوا سفراء طغاة قد فقدوا حقوقهم على رعيتهم كما فقدوا حقوقهم على نظائرهـم. وما أكـره أن تدور الأيام علـىّ بمثل ما دارت به عليهم إن اقترفت من الإثـم مثل ما اقترفوا، واجترحت من

الذنــب مثل ما اجترحوا، وجنيت من الســيئات ما يجعلنى لذلك أهلًا.

وقــد تعلمت منك يا أبت أكثر مما تظن أنى تعلمت. وأول مــا تعلمت منك أن آخذ ملكى بحقه، وأن أنهض بما على من واجب قبل أن أطلب ما لى من حق، وأن أبيح للشعب معصيتى والخروج على وإهدار ســلطانى عليه، إذا لم أعرف له حقه، ولم أؤد إليه ما ينتظر أن أؤدى إليه. فلا بأس عليك، ولا بأس علــىّ، ولا بأس على رعيتنا من هــذه الخطة التى اتخذتها. وانظــر! فهذا وزيرنا قد أقبل ينبئنا بــأن عدونا قد قبلوا ما فرضنا عليهم من شــرط، وهم يريدون أن ننظم وفودهم علينا واستقبالنا لهم».

وكان الوزيــر قد دخل أثناء حديث الملكة. فلما سمع آخر هــذا الحديث حيّا وقــال: «إن الأمر كما تريــن يا مولاتى، وإن عــدوك يطلبون كيف يكون وفودهــم عليك وكيف يكون استقبالك لهم؟».

قالت الملكة: «فكيف ترى أن يكون ذلك أيها الوزير؟!».

قال الوزير: «ملوك يا مولاتى، فيجب أن يستقبلوا كما يستقبل الملوك، ومراسم ذلك معروفة مقررة».

قالت الملكة وهى تضحك: «بل طغاة بغاة يا سيدى، فيجب أن يستقبلوا كما يستقبل الطغاة البغاة. تلقهَّم أنت إن شئت. أما أنا فلن ألقاهم، ولك أن توكل بلقائهم من أحببت، فإذا مثلوا بين يديك، أو بين يدى وكلائك؛ فخيرهم بين الموت وبين أن يشهدوا على أنفسهم بالطغيان وإهدار حقوق الشعوب، فأيهم اختار الموت فجرعه كأسه، وأيهم اختار الحياة - وكلهم سيختارها - وأشهد على نفسه أنه طاغية مهدر لحق شعبه، فليخلعَ نفسه من الملك ولْيُلْقِ إلينا بيده، ونحن نسلمه بعد ذلك إلى وطنه يصنع به ما يشاء، ثم لا تراجعنى فى أمرهم بشىء قبل أن تنفّذ ما قدمت إليك».

وتم كل شىء يا مولاى كما أرادت الملكة ورُدّت إلى شعوب الجن حقوقها المغصوبة، وحرياتها المسلوبة، وتأذنّت فاتنة فى شعبها وفى الشعوب الأخرى بأن أمور الأمم إليها تُشرك فيها من الملوك والرؤساء من تشاء وكيف تشاء، وتقيد ملوكها ورؤساءها من القوانين بما تحب، وتشرف على

إنفاذ ملوكها ورؤسائها لإنفاذ هذه القوانين، وتتخفف من الملوك والرؤساء إن خالفوا عن هذه القوانين.

وأقامت شعوب الجن يا مولاى لهذا الحدث أعيادًا رائعة، وأرَّخت به منذ كان وما زالت تؤرخ به إلى الآن. وجعل الجن يتنزلون ببعضه إلى الإنس بين حين وحين، فيفهم الناس عنهم ذلك حينًا ويخطئون الفهم فى أكثر الأحيان. وهذا مصدر ما نرى عن الناس من الاختلاف فى نظم الحكم ومن اضطراب العلاقات بين الرعية ورؤسائها وبين الأمم والدول.

ومن يدرى يا مولاى! لعل عالم الجن أن يصل إلى الناس ذات يوم أو ذات قرن واضحًا جليًّا لا لبَسْ فيه ولا غموض. أو لعل عقول الناس أن ترتقى ذات يوم أو ذات قرن إلى حيث تفهم عن الجن فى غير مشقة ولا جهد. يومئذ أو قرنئذ تصلح أمور الإنسان كما صلحت أمور الجان».

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

ولم يأو الملك فى مضجعه حين عاد إلى غرفته كما كان يقدِّر أنه سيفعل. ولم يذهب إلى نافذة من نوافذ الغرفة ولا إلى

طنـف من أطناف القصر ليشـرف على الحديقة ويستنشـق الهـواء الطلق كما تعود أن يفعل مـن قبل، وإنما عكف على نفسـه يتدبر ما سمع ويستحضر ما شـهد ويتذكر ما رأى، وكأنه أنسـى نفسـه فى هذا العكوف، حتى أقبلت شهرزاد وقد ارتفع النهار. فلما أحس مقدمها رفع رأسـه إليها دهشًا وهـم أن يتكلم، ولكنه رأى فى وجهها الجد، وسمعها تقول فى صوت حازم باسـم معًا: «لشـد ما هانت عليك أمور الملك يـا مولاى! ها أنت ذا تخلو إلى نفسـك فـى زاوية من زوايا غرفتك كأنك فرد من أفراد الناس قد فرغ للفلسـفة والتفكير. ألم تحاسـب نفسـك على هذا الوقت الطويل الذى أنفقته فى غير شـئون الملك؟ ألم يخطر لك أن للشـعب حقوقًا يجب أن تـؤدى إليـه، وأن أوقات الملوك ليسـت خالصة لهم من دون الرعية؟!».

قال الملك دهشًـا فى صوت كأنه يأتى من بعيد: «يا عجبًا! كأنما أسمع حديث فاتنة».

قالت شـــهرزاد ذاهلة: «فاتنة! فاتنة! ليس هذا الاســـم على غريبًا، وأحسب أن لى به عهدًا قريبًا».

القدس سبتمبر سنة ١٩٤٢م
الإسكندرية يناير سنة ١٩٤٣م

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٩٦ جنيها.
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ١٢٠ دولارا أمريكيا.
- الدول الأجنبية ١٣٠ دولارا أمريكيا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدما نقدا أو بشيكات.

بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل – ماسبيرو – القاهرة.